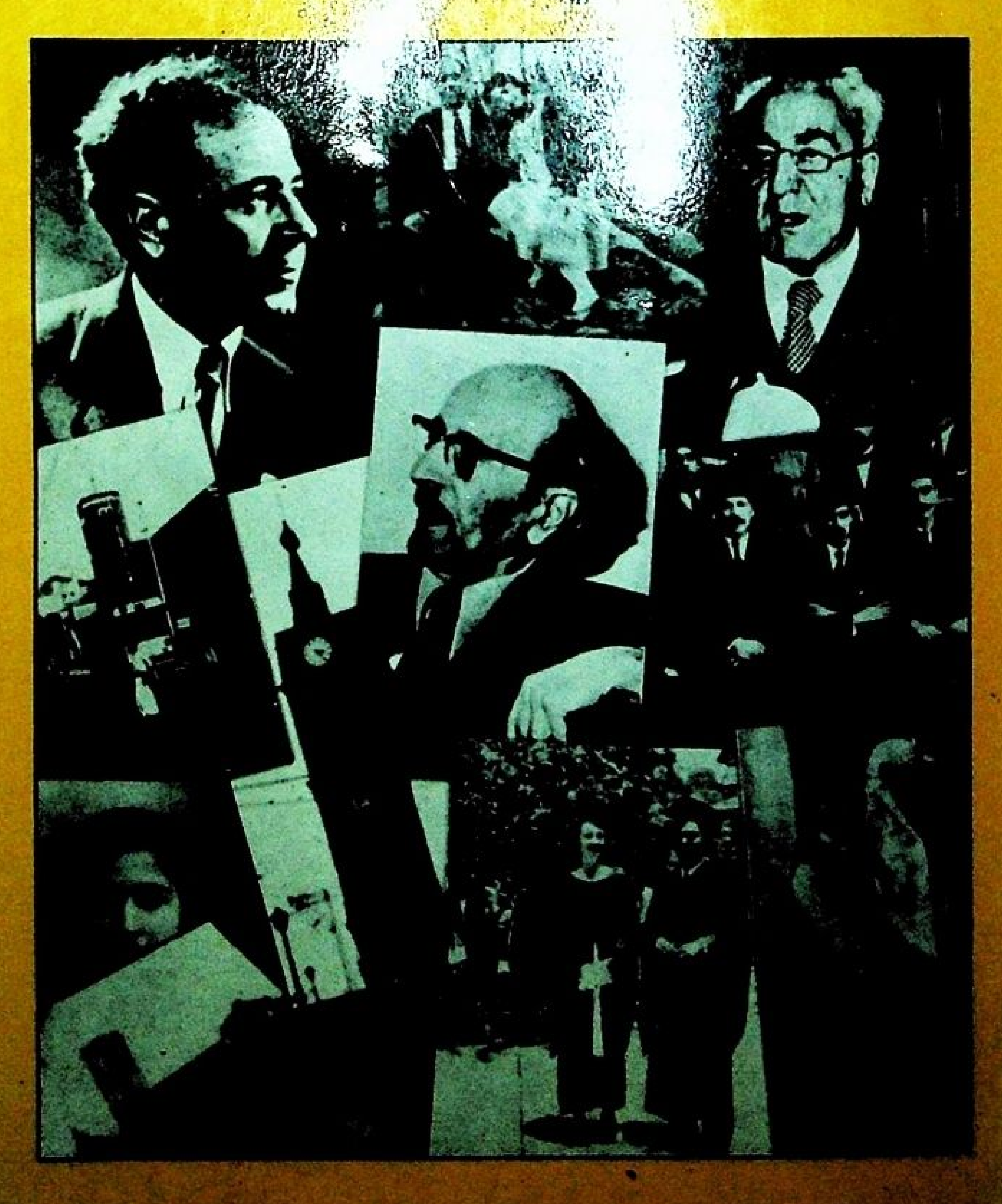
هشام شرابي

# صُوَر الماضي



الى الدكتور جورج زيناتي

مع التقدير واخلص

التمنيات لرحلات

جديدة ممتعة

هشام شرابي

بيروت في ١٩٩٢/٦/٢٩

# صُوَر الماضي

تصميم الغلاف بيار ديب

هشام شرابي

# صُوَر الماضي

## سيرة ذاتيّة

دار نلسن



دار نلسن - السويد

الطبعة الأولى

بيروت ١٩٩٣

التوزيع



مكتبة بيسان

ص. ب : ٥٢٦١ ـ ١٣٠ ـ هاتف : ٣٥١٢٦٩

بيروت . لبنان

# شكر

أود ان اسجل شكري وتقديري الى الاصدقاء الذين ساهموا بشكل او بآخر في اخراج هذا الكتاب، وبخاصة محمود شريح، ويوسف سلامه، وسليمان بختي، وبيير ديب، والى الذين زوّدوني بالوثائق والصور التي تكوّن جزءاً مركزياً في هذه السيرة، وبخاصة بدر الحاج، وتانيا ناصر، ودينا ابو داية، وسائدة الشوا، وصالح ترجمان، وسمير الصليبي، والمركز العربي للمعلومات.

إلى أدونيس وخالدة
وإلى ياسين

# ١



# ١

يرّن جرس الهاتف فأرفع السمّاعة. مخابرة كنتُ بانتظارها.

طبيبي وصديقي سعيد كرمي ينقل اليّ نتيجة الفحوص التي أُجريت لي في غدّة البروستات.

"لا تشغل بالك. انما هناك بدء سرطان في الغدة. ويجب اجراء فحوص للتأكد من ان السرطان لم ينتشر في أنحاء الجسم."

يضيف: "حدّدتُ لكَ موعداً في المستشفى في الساعة. الثامنة من صباح الغد لاجراء الفحوص."

أُحسُّ بهدوء غريب يغمرني، كالشعور الذي يسبق فقدان الوعي عند تلقي ضربة مفاجئة على الرأس. أضع السمّاعة وأطفيء النور. أُحدّثُ نفسي، يجب ألا أفقد أعصابي. كم من مرة فكرت بلحظة كهذه، وكيف سأجابهها عندما تأتي. ها هي الان تأخذني على حين غرّة. كنت واثقاً اني لست مصاباً بأي مرض. ظننت ان الفحوص روتينيّة. منذ سنوات لم اشعر بالصحة والنشاط اللذين اشعر بهما الان.

لا انقل فحوى المخابرة بكاملها لزوجتي، لكنها تدرك ان النتيجة سيئة وتلوذ بالصمت. الجأ الى الفراش باكراً. اعرف اني سأستيقظ في الليل، كما افعل عندما اكبت ما يقلقني، فيضطرب قلبي خوفاً من تلك الساعة. انام نوماً متقطّعاً مليئاً بالأحلام المفزعة. استيقظ. انظر الى ارقام الساعة المتوهّجة الى جانب السرير: منتصف الليل الا بضعة دقائق.

أتمدّد على ظهري وأغمض عينيّ. اسمع صوت سيارة مسرعة في الشارع المحاذي. يطفو السؤال الذي كبتّه الى سطح الوعي: اذا انتشر السرطان في اطراف الجسم ودخل في العظم، ما الذي سأفعله؟ اسمع دقات قلبي. امنع نفسي عن التفكير. استعيد أحداث فيلم شاهدته منذ بضعة ايام. اركّز على بعض المشاهد وأتابعها بدقة. دون جدوى، فالسؤال يلحّ عليّ. آخذ في التنفس العميق المنتظم واعدّ النَفَس بعد النَفَس. أكثر ما يرعبني تفكُّك الأنا، والالم. لا تَرِد كلمة الموت في ذهني.

لا اريد ان يدري احداً بمرضي. لا اريد عطف الآخرين وشفقتهم. لا احد يستطيع مساعدتي. في مرض كهذا لا يستطيع مشاركتي الشعور حتى اقرب الناس اليّ. اتذكر قصة تولستوي. قرأتها للمرة الثالثة او الرابعة منذ بضعة اشهر. الى جانب ايفان اليتش عند مرضه لا يبقى الا خادمه العجوز. زوجته وابناؤه واصدقاؤه يزورونه، يمسكون بيده، يحادثونه، يطمئنونه، ثم ينصرفون الى اعمالهم. فقط الخادم العجوز يبقى جالساً الى جانبه يدلّك ساقيه عندما يشتد عليه الالم ويساعده على التقلّب الى جانبه عندما يتحجّر ظهره، او الجلوس في الفراش عندما لا يستطيع النوم. حديث زوجته واولاده في غرفة الطعام يتهادى الى سمعه. يسمع وقعَ خطاهم في أنحاء البيت. وصوتَ بابِ البيْت يُفتح ويُغلق عندما

يخرجون وعندما يدخلون. اصدقاؤه الذين يأتون لزيارته ينظرون اليه بفضول واضح، يريدون التأكد كيف غيّره المرض. يشعرون بارتياح لانهم ما زالوا أصحاء ويغادرون غرفة المريض وقد غمرهم هناء غامض لا يعرفون مصدره.

افكر بكيركجارد. الخوف من الموت تحكّم بحياته كلّها. ولكنه كان خوفاً دينياً. كان يريد الخلاص بواسطة ايمان رفضه عقلُه. جميعنا نفعل ذلك بصورة او بأخرى. ندرك اننا سنموت، لكننا نتحوّل عن الحقيقة المُفزعة الى "الايمان" او المقولات المتداولة والكلمات الشائعة. نشهد موت الآخرين، اما موتنا نحن فلا نراه، ندفع به قُدماً الى مستقبل مجهول لن يأتي.

أفكر بصديقي الن تايلر. حارب الذعر الذي تملّكه بالتشديد على ان السرطان في رئتيه كان محدوداً وسيتمّ استئصاله بسهولة. وعندما كشف الفحص انه امتدّ الى الرأس، اخبرني ان الطبيب طمأنه بان الامتداد لا يتعدّى "سبع نقاط صغيرة" في المكان الذي كان متوقعاً ان توجد فيه وان استئصالها بالاشعة سيكون سهلاً وسريعاً. كان يردّد لي ان من حسن طالعه انه قدم الى مستشفى جورجتاون الذي يعتبر من اكثر مستشفيات اميركا تقدّماً في معالجة السرطان. في الأيام الأولى كان يحاول اقناع نفسه واقناعي انه في سلامة ولا خطرَ حقيقياً يهدِّد حياته. كان في اللحظة التي ادخل فيها غرفته يبدأ في الكلام ولا يتوقّف الى ان اقاطعه او عندما تنتهي الزيارة. ما ان خضع لمعالجة كيميائية حتى عاد الى البيت مطمئناً. الا ان اطمئنانه تبخر لدى ظهور العوارض الجانبية التي تنتج عن تلك المعالجة: نزيف في اللثة، وتساقط الشعر، وانخفاض عدد الكريات البيضاء، وارتفاع الحرارة، مما ألقى به ثانية في أحضان ذعر رهيب. عندما زرته ثانية في المستشفى اخبرني انه كان منهار

الاعصاب يبكي كالأطفال. الا انه سرعان ما استعاد ثقته واقنع نفسه بأنه سيشفى عاجلاً.

اني الان في الوضع الذي كان فيه. اتفهّم تماما محاولة الغاء الامر الراهن واستبداله بآخر زال منه الخطر. رغبتي الآن ان استيقظ وأجد نفسي في حلم مزعج لا أكثر.

اغفو عند مطلع الفجر، ثم استيقظ ثانية. يبدّد اطراف الظلام ضوءٌ خافت يتسلّل من وراء ستار النافذة. اسمع صياح صرّار الليل، والدنيا آخر الخريف، مُدركاً دنوّ أجله.

انا الآن عند "لحظة الحقيقة" كما يقولون بالانكليزية، اجابه مصيري لوحدي.

اقوم الى الحمّام. انظر في المرآة، يفزعني منظر الخوف في العينين اللتين تطلّان عليّ. اعود الى الفراش، وآخذ ثانية في التنفّس العميق المنتظم.

## ٢

كيف وصلت الى هنا، الى ما أنا فيه؟

بريئة كانت البداية، لا تدعو الى القلق.

أثناء الفحص الطبي الذي نخضع له في الجامعة في مطلع كل سنة دراسية، لحظَ الطبيب منذ سنة تحجّراً في غدة البروستات، ونصحني بفحصها عند الطبيب المختص. إتصل بدائرة الأمراض البوليّة في مستشفى الجامعة وحدّد لي موعداً مع الدكتور لينش رئيس الدائرة.

قال الدكتور لينش، بعد ان فحصني، ان هناك تحجّراً في

البروستات ونصح باستئصال عيّنة للتأكد من اسباب التحجّر. قال ان العملية بسيطة ولا تستدعي بقائي في المستشفى اكثر من بضع ساعات. لم يذكر ان العملية وعلى "بساطتها" قد تؤدي احياناً الى مضاعفات خطيرة.

تمّت العملية حسب البرنامج. تناولت المخدّر بواسطة انبوب غرس في شريان ذراعي الأيسر، ولم احسّ بشيء الى ان استفقت على صوت زوجتي تحادثني. قالت اني نمت ساعة بعد انتهاء العملية وان كل شيء سار على ما يرام وستظهر النتيجة غداً. ارتديت ثيابي وخرجنا من المستشفى، وانا لا اشعر الا بقليل من الثقل في رجليّ وبصداع في رأسي. في البيت تمددت لارتاح قليلاً وما لبثت ان استغرقت في نوم عميق. استيقظت والعرق يتصبب من جبيني. وضعت زوجتي ميزان في فمي: الواحدة والاربعون. اتصلت رأساً بالطبيب. قال: "احضريه الى الطوارىء."

حدث تسمم في الدم من جرّاء العملية. بقيت في المستشفى اربعة ايام. اخبرني صديقي الطبيب زياد ديب فيما بعد ان حياتي كانت في خطر في اليومين الأوّلين في المستشفى.

في مساء اليوم الاول شعرت بتحسن بسبب دواء الانتيبوتيك الذي أعطي لي باستمرار بواسطة المصل في ذراعي. قبل النوم قالت الممرضة وهي تناولني حبتين من الاسبرين: "ستزول الحرارة وستنام براحة."

استيقظت بعد منتصف الليل ارتجف برداً وبالوقت ذاته كنت اتلوّى من نار مُحرقة في عروقي. مددت يدي في الظلمة افتّش عن الضوء على المنصة بجانب السرير، فارتطمت يدي بكوب الماء ووقع أرضاً فانكسر. اتت الممرضة راكضة. صحت: "اني احترق، اني ارتجف." اخذت حرارتي وضغط الدم ثم هرعت تنادي الطبيب.

كنت في حالة هذيان. احاول التنفّس فلا استطيع. كلما آخذ نفَساً اشعر وكأن رئتيّ تلتهبان في صدري. أحسّ بأني اغرق، وعلى وشك أن أختنق. ارى وجوهاً وصوراً، واسمع لغطاً وهديراً. لا ادري ان كان قد اغمي عليّ. عندما أفتح عينيّ ارى وجه الطبيب فوقي واحسّ بكيس ثلج وُضع على رأسي وبغطاء صوف يلف جسدي.

اعود الى الوعي رويداً رويداً. اتطلّع حولي وادرك اين انا. يسألني الطبيب ان كنت اشعر بتحسن. اهزّ برأسي ايجاباً. ارى ضوء الفجر الشاحب من وراء الستائر. يقوم الطبيب ويتحدّث الى الممرضة بصوت خافت ثم يغادر الغرفة. ترفع الممرضة كيس الثلج عن رأسي وتستبدل البطانيّة بغطاء اخفّ، ثم تطفىء النور. وانام نوماً عميقاً.

## ٣

في مساء اليوم التالي تقول الممرضة: "اذا لم ترتفع حرارتك الليلة فستغادر المستشفى غداً." طيلة النهار بقيت الحرارة اعتيادية. زارني قبل الظهر الطبيب الذي اجرى عملية استئصال العيّنة واخبرني ان النتيجة كانت سلبية مع أنّ هناك تضخماً في غدة البروستات. وأخبرني ان تسمّمَ الدم حدثٌ نادر، يحصل لأقلّ من ثلاثة من كل مئة تجرى لهم هذه العملية. أضاف قائلاً: "من سوء حظك أن تكون واحداً من هؤلاء."

عدم وجود مرض في الغدة جعلني انسى عذابي في الليلة السابقة. ألم الجسد ننساه حالما يتوقّف. جلست في فراشي اقرأ

واستمع الى الراديو طيلة النهار في حالة نفسية جيدة.

في المساء، بعد ان ابتلعت حبّة المنوم، ابستلقيتُ على السرير استعداداً للنوم. شعرت بصداع خفيف كالذي احسست به في مثل هذا الوقت في الليلة السابقة. لم اعره اهتماماً واغمضت عينيّ ونمت نوماً متقطعاً.

استفقت على صراخ عال. فتحت عينيّ ووجدت اني مصدر الصراخ. كنتُ أتصبّب عرقاً وارتجف برداً، تماما كما حدث لي في الليلة السابقة. كنت لا استطيع التنفس. شعرت انني اختنق. جاءت الممرضة وامسكت بي لتمنعني من النهوض. دفعتني بقوة الى الفراش ونادت زميلتها المداومة في القسم المجاور، وهرعت تنادي الطبيب. صحت بالعربية: "اني اختنق." سمعت صوت الطبيب من بعيد: "ماذا تقول؟ أخبرني ماذا تقول؟" شعرت بالممرضة ترفع رأسي وتضع حبّتي دواء بين شفتيّ وتناولني كأساً من الماء وتقول: "ابلع. ابلع." في الوقت ذاته كان الطبيب يضع انبوباً في مدخل بدني ويقول للممرضة: "حالته لا تدعو الى القلق." غبت عن الوعي، ولم استيقظ الا عندما فتحت الممرضة ستائر النافذة وامتلأت الغرفة بضوء يوم جديد.

بعد افطار الصباح شعرت بالقوة تسري في عروقي وسرعان ما عدت الى حالتي الطبيعية. اخبرني الطبيب ان التسمّم في الدم انتهى وأنّ الخطر زال. الا انه يتوجب عليّ البقاء في المستشفى يومين آخرين ليتم مفعول الدواء.

اخبرت زوجتي بما قاله الطبيب وطلبتُ اليها أن تمنعَ عنيّ الزيارات. كان خبر وجودي في المستشفى قد بدأ بالتسرب، فاتصل بعض الاصحاب والاصدقاء ليطمئنوا عليّ.

قضيت اليومين الباقيين في سكون ووحدة. انخفضت درجة

الحرارة. طلبت من الممرضة ان تزيح الستائر كلياً عن النافذة لأتمكن من رؤية الأشجار والسماء. لم اقرأ ولم أكتب خلال يومين كاملين. كنت تعباً ولكن في صفاء ذهني تام، انظر الى الاشجار تتمايل في زرقة السماء وافكر واتذكّر وأحلم.

٤

كلما اقتربنا من المرحلة الاخيرة من حياتنا يزداد تذكّرنا للماضي، فيتقلّص المستقبل اذ يزداد تجاهلنا له، لا لعدم اهتمامنا به بل لخوفنا على نفاده. فأنّنا بتجاهل المستقبل نرغب في تثبيته على الشكل الذي أردناه طيلة حياتنا، امتداداً لا نهاية له، يحقق لنا اهدافنا واحلامنا. هكذا يبقى المستقبل الى ان نستفيق عند شمس المغيب.

كنت في هذه السنوات اذكّر نفسي بين الفينة والاخرى بان المرحلة الاخيرة تقف على الابواب، وأنّه يجب التوقّف والتفكير. غير اني لم اتوقّف ولم افكّر، إذ بقيت على انشغالي. وفجاة وجدت نفسي تجاوزت منتصف الستينات من عمري.

لا اريد ان يساء فهمي. لا اخاف من هذه المرحلة الاخيرة من العمر. هناك الكثير من المؤنس والجميل فيها، كالتحرر من عبوديه المستقبل، ومن رغبات الجسد وشهوة الشهرة وجاه المركز. لكن اجمل ما فيها هو العودة الى النفس، وتأطير الحياة في ماض امتلكه. من هنا الرغبة الجارفة في العودة الى الماضي وتقصّي معالم الحياة التي عشتُ معظمها في غفلة عن نفسي.

## ٥

غادرت البلاد سنة ١٩٤٧ وأنا في العشرين من عمري ولم تكن الهجرة هدفي، فأنا لم "اهاجر" الا بعد عودتي ثانية الى اميركا سنة ١٩٤٩ إثر اعدام انطون سعاده والقضاء على الحزب السوري القومي الاجتماعي. أكاد لا اصدق الأن اني لم امضِ فوق أرض وطني سوى عشرين عاماً من حياتي. لو بقيت فيه لكنت اغلب الظن دخلت السجن او قتلت او في احسن الاحوال أبعدتُ عنه بعد عذاب طويل، كما حدث للعديد من أبناء جيلي المثقفين. كان من المستحيل لمن التحق بحزب والتزم بعقيدة ان يعيش حياة طبيعية. طريق الحزب السوري القومي الاجتماعي كانت باتجاه واحد: الانتصار (امتلاك السلطة) او الاندثار. من هنا كانت لغة انطون سعاده التي سحرتنا، لا تعرف المساومة ولا تقبل الا الصيغة المطلقة. كم مرة في الاشهر الستّة الاخيرة قبل اعلانه "الثورة القومية الاجتماعية الاولى" سمعت سعاده يعلن في الاجتماعات الحزبية ان ساعة الحسم قد قربت.

سنة ١٩٤٩ غادرت البلاد، لكني فعلياً لم اهاجر. الهجرة تعني الاقتلاع وبدء حياة جديدة. الا اني لم أقتلع من وطني ولم ابدأ حياة جديدة في وطن غيره. بقيت جذوري مغروسة في ارض كنت بعيداً عنها.

الى هذا اليوم ما زلت غريباً في هذا البلد الذي قضيت فيه الجزء الأكبر من حياتي. في صباح كل يوم في الصيف والخريف اجلس في الشرفة المطلة على حديقتنا الصغيرة، أشم عبير الورد الذي زرعته زوجتي حسب طلبي. أغمض عينيّ ويخيّل اليّ اني اتنشق عبير الورد في عكا. وعندما التقط ورق الصعتر الاخضر، الذي زرعته من

اجلي، وافركه بين اصابعي واشمّ رائحته ارى نفسي في جبال لبنان عند سوق الغرب وعاليه. وعندما تقدم لي زوجتي عنب آخر الموسم اذكر طعم عنب رام الله الذهبي الذي كان يقدم الينا عند عودتنا الى مدرسة الفرندز في اول الخريف. وفي الصيف، على شاطىء البحر في فيرجينيا، يتحول كل ما يحيط بي، ماء البحر ورمال الشـاطىء والافق البعيد والهواء المشبـع برائحـة البحر، الى صُـوَر وأحاسيس تذكّرني بشاطىء يافا وعكّا وبيروت. الواقع الذي عشته هنا لأكثر من اربعين سنة ما زال عاجزاً عن امتلاكي. اني كمسافر يملأ الحنين قلبه منذ اللحظة التي يغيب فيها ساحل بلاده عن ناظريه، ويعيش محكوماً بالآني والعابر، حقائبه دائماً معدّة، ينتظر ساعة العودة.

## ٦

كانت هجرتي قسرية، كما عبّر انطون سعاده عن هجرته، ولا زالت. حـاولت العودة وخـططت لهـا لسنـوات. اتخذتُ الخـطوة الحاسمة سنة ١٩٧٤، عندما بدأت ببناء بيت صغير في قرية المشرف المطلّة على مدينة الدامور على الساحل جنوبي بيروت (حيث لا يزال اسـاسه قـائماً). كنت عـلى وشك ان اقـدم استقالتي من جـامعـة جورجتاون عندما انفجرت الحرب الاهلية في لبنان في ربيع ١٩٧٥.

هذا الارتباط بالوطن يعود بالدرجة الاولى الى ارتباطي بأنطون سعاده والحزب. غيّر الحزب السوري القومي الاجتماعي معنى كلمة "حزب" جذرياً في المشرق العربي، من المفهوم التقليدي للحزب الى مفهوم الحركة القومية الاجتماعية الشاملة. من مفهوم عتيق يقوم على شعارات الابوية التقليدية الى مفهوم حـديث يقوم عـلى العقلانيـة

والالتزام الهادف. وكان التحاقي به امراً مقدّراً. بديلي الوحيد كان الحزب الشيوعي. غير اني في تلك الفترة لم اكن اعرف عن كارل ماركس والشيوعية الا ما كانت تتداوله الالسن، ومعظمها كانت جاهلة بكليهما.

تجسّد الأثر الأكبر للحزب في المثالية التي زرعتها في نفسي الرؤية القومية الاجتماعية. فاتجهت حياتي منذ ذلك الحين نحو العمل القومي والاجتماعي. لم يخطر ببالي يوماً ان اكرّس حياتي للربح الخاص او ان اضع مصلحتي الشخصية هدفاً اعلى في الحياة. اقول هذا لا تبجحاً بل لأصف ما حكم توجه حياة عاشها الكثيرون من افراد جيلي الذين التحقوا بالاحزاب والحركات السياسية في جميع انحاء العالم العربي في الاربعينات والخمسينات.

وفي حين حرمني اغترابي من العيش في وطني، الا انه زاد من نشاطي في تحقيق ما كنت لا اقدر على تحقيقه لو بقيت فوق أرضه. في الولايات المتحدة اتممت دراستي العليا وحصلت على الدكتوراه خلال سنوات قليلة، وتمكنت من ان أصبح استاذاً جامعياً في احدى كبرى الجامعات الاميركية. بهذا كنت بين المحظوظين من المثقفين العرب الذين تمكنوا من الافلات باكراً من ربق الثقافة الابوية وانظمتها السياسية، واصدار بحوث ودراسات دون خوف من سلطة او رقابة فكرية.

## ٧

في مساء اليوم الثالث تقول لي الممرضة: "ستنام هذه الليلة مرتاحاً. الحرارة زالت ولن ترتفع مرة أخرى."

لم ترتفع الحرارة، لكنني لم انم طويلاً. استيقظت قبل الفجر، في الوقت نفسه الذي كنت اتعرض فيه في الليلتين السابقتين لهجمات الحرارة والرجفان. لكني كنت الان في حالة طبيعية ووعيّ واضح.

منذ طفولتي أحب القراءة. ولعت بالقصص في روضة الاطفال عند مس باين في يافا. ثم في مدرسة الفرندز على يد الاستاذ فرج وكان من غزة. وفي المدرسة الاستعدادية في بيروت اصبحت قراءة الكتب واقتناؤها هوايتي الكبرى. كنت كل يوم اثنين، في صف استاذ اللغة العربية موسى سليمان، اقدم بمبادرة منيّ مراجعة لكتاب قرأته في عطلة الاسبوع. كنت اكتب المراجعة في دفتر خاص، اتناول فيها محتوى الكتاب واقيّمه وانقده. احياناً كان موسى سليمان يقرأ ما كتبته ويثني علي. بعد سنوات قليلة اصبح لدي مجموعة من الكتب تُشكِّل مكتبة صغيرة حفظتُ قسماً منها في يافا والقسم الآخر ابقيته في عكا، وكانت اعزّ ما املك.

كان من المحتم بعد تخرجي من الجامعة الاميركية السفر الى الخارج. الثقافة الاجنبية التي تعرفت اليها بدءاً بروضة الاطفال دفعتني نحو الدراسة في اوروبا او اميركا. وحتى لو فضلت البقاء في العالم العربي لم يكن فيه آنذاك جامعة واحدة تمنح شهادة الدكتوراه في اي من الحقول الدراسية، ربما باستثناء الجامعة المصرية في حقل الادب.

لم امارس الكتابة والنشر باللغة العربية بعد غربتي الا فيما ندر. كنت، مثل غيري من المثقفين العرب الذين درسوا في الخارج، اعتبر الكتابة بالعربية في منزلة هي دون الكتابة باللغة الانكليزية او الفرنسية. لم يكن هناك مقياس او قاعدة لتقييم الانتاج الفكري او الادبي في العالم العربي. الاديب او المفكر "المعروف" هو الذي يكتب وينشر بكثرة، فيتحدث عنه المثقفون والادباء. اما التحليل والنقد

فلم يكن لهما وجود بالمعنى الدقيق، واقتصرت الكتابة النقدية على المديح او الهجاء او، في احسن الحالات، على الوصف والعرض المملّين. من هنا كانت نظرة المثقفين العرب "الغربويين" الى الكتّاب والباحثين باللغة العربية نظرة تعالٍ واستخفاف، فيما كانت نظرة احترام وخشوع الى الكتّاب والمفكرين الغربيين.

يمكن تصنيف المثقفين العرب في الغرب الى نوعين: اولئك الذين ولدوا في الغرب او نشأوا فيه منذ الصغر واصبحوا يجيدون احدى لغاته كما يجيدها ابناؤه ويشعرون بانتماء اجتماعي ونفسي اليه، واولئك الذين "هاجروا" الى بلد غربي للدراسة او لاسباب سياسية واصبحوا يجيدون لغته دون امتلاكها كلياً، ويتفاعلون بعمق مع ثقافته دون الذوبان فيها. النوع الاول من المثقفين تفاعلَ مع المجتمع العربي من الخارج، من موقع لغته الاخرى وثقافتها، اي من موقع الكاتب الغربي او المستشرق. في حين كان موقع النوع الثاني من المثقفين موقع الانتماء القومي والنفسي والالتزام الفعلي بقضايا المجتمع العربي. وكنت من افراد الفريق الثاني.

الا اني مثل معظم المثقفين من كلا النوعين لم "أُضَحِّ" من اجل وطني. عشت عيشة آمنة ومرضية على الصعيد الشخصي، الا ان حياتي بقيت مليئة بالاحباط. وما زال سبب الاحباط الاكبر الذي اشعر به الان، في نهاية حياتي الناشطة، هو عدم تمكني من العودة الى وطني والتوصل الى موقع استطيع من خلاله المساهمة الفعّالة في قضاياه بشكل او بآخر.

اقتصر نشاطي في المجال القومي على "التدخل" من الخارج، وعلى الكتابة النقدية والممارسة النظرية. إثر اغتيال عدنان المالكي سنة ١٩٥٥ انتهت علاقتي بالحزب السوري القومي الاجتماعي، فلم تعد الرؤية الا ذكرى. وبعد حرب ١٩٦٧ ونهوض المقاومة الفلسطينية،

التحقت بالعمل الفلسطيني، وانتقلت سنة ١٩٧٠ الى بيروت خصيصاً للعمل في مركز التخطيط التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية. وتبين لي خلال السنة التي قضيتها في بيروت ان العمل في المقاومة يتطلب اكثر من مجرد الالتزام بالقضية: انه يتطلب الانتماء الى احد فصائل حركة المقاومة، ويتطلب اكثر من ذلك الولاء الشخصي لاحدى القيادات والعمل تحت جناحها. لم اقطع علاقاتي بالمقاومة، غير اني بقيت خارج مراكز السلطة وصنع القرار فيها مثل الكثيرين من المثقفين الفلسطينيين الذين لم يلتحقوا بأحد التنظيمات.

في المجتمع العربي يريد المثقفون ايصال "الحقيقة" الى ذوي السلطة، وهؤلاء يرفضونها. فهم لا يريدون "حقيقة" المثقفين ولا فلسفتهم، بل ولاءهم الشخصي. هذا هو مسلك النظام الابوي وموقف القيادات الابوية. كان خطأي الاكبر اعتقادي ان الثورة الشاملة قادمة لا محالة، وان ازالة الانظمة العربية المهترئة سيحدث عاجلاً او آجلاً، وسيقوم مكانها النظام العقلاني الحديث. وبقيت على هذا الفكر الطوباوي الذي زرع الحزب السوري القومي الاجتماعي بذوره في نفسي حتى اكتشافي انّ النظام الابوي قادرٌ، اذا لم يجابه مباشرة، على الوقوف بوجه كل ثورة واحباطها.

## ٨

في مادة "الفكر الاوروبي في القرن التاسع" حاضرتُ في الفكر الماركسي لعدة سنوات في جامعة جورجتاون، من وراء حاجز ذهني مشبع بالعداء للشيوعية والماركسية غرسته في نفسي ثقافتي الليبرالية. ولم اتخلص من هذا الموقف المعادي للماركسية الا في اواخر الستينات

عند قيام الحركة الطلابية، وكان لعدد من طلابي الراديكاليين دورٌ كبيرٌ في ذلك. اعدت آنذاك قراءة ماركس بشكل جذري وبخاصة نصوصه الاولى، مثل "المخطوطات الفلسفية" و"الأيديولوجية الالمانية"، ودخلت في تجربة فكرية كتلك التي رافقت قراءتي الاولى لكيركجارد في الجامعة الاميركية. ركز كيركجارد على اولوية التجربة الحياتية ورفض التجريدات الفكرية التي اقامها هيجل اساساً لفلسفته. لكن في حين تناول كيركجارد الفرد والحياة الفردية اطاراً نهائياً لتفكيره، عالج ماركس الفرد والوجود الفردي من ضمن حياة المجتمع ككل، ولخص موقفه في اطروحته الشهيرة: "حتى الآن قام الفلاسفة فقط بتفسير العالم بطرق مختلفة، لكن المهم الآن تغيير العالم."

ما كنت اسعى اليه هو تثبيت العلاقة بين الفكر والواقع الذي نعيشه افراداً وجماعات. اكتشفت الآن عند قراءة ماركس في ضوء ثورة الستينات انه كان اقرب الى ما كنت ارمي اليه من كيركجارد الذي انحدر في الاخير باتجاه ديني لم أستسغه. الا انني لم "اؤمن" بالماركسية كعقيدة شاملة تفسّر التاريخ والوجود، او كايديولوجية حزبية على صعيد عالمي. إذ كانت الستالينية بالنسبة لي نظاماً فكرياً وسياسياً لا يمكن قبوله، وكانت الماركسية السوفييتية بعيدة كل البعد عن "ماركسية" مؤسسها كما تفهمتها من خلال نصوصه ومن خلال نصوص سارتر ولوكاش وغيرهم من الماركسيين الغربيين. ثُمّ اني اكتشفت في الماركسية اسلوباً جديداً في منهجية المعرفة، أعني الاسلوب النقدي التحليلي. كان الاسلوب الوضعي الذي سرت عليه حتى ذلك الحين اسلوباً غلب فيه اتجاه الوصف والعرض على التحليل والنقد. فكان توجهي الفكري والنفسي دائماً هو السعي لمعرفة "الحقيقة" واعتناقها، لا الى تقصّي جذور "الحقيقة" ونقدها

والكشف عما يكمن وراءها. وتعزّز ارتباطي بالاسلوب النقدي الماركسي لدى قراءتي الجديدة لفرويد في الوقت الذي اعدت فيه قراءة ماركس. ووجدتني منذ ذلك الحين أجمع بين الاتجاهين، الماركسي والفرويدي، في تحليلي للمجتمع العربي وللخطاب الابوي المهيمن عليه.

الا انني من جهة اخرى جابهت بعض الصعوبات النظرية في محاولتي تطبيق مقولات ماركس على واقع المجتمع العربي بسبب "اوروبية" فكر ماركس بتأثير هيجل وتركيزه على بنى النظام الرأسمالي الحديث كما نشأ في اوروبا الغربية في القرن التاسع عشر، وهذه بنى لم يقم مثلها في العالم العربي الذي ما زال حتى الان في مرحلة ما قبل الرأسمالية. ومن الاسئلة التي طرحتها آنذاك على نفسي: ما هي المفاهيم الماركسية التي يمكن اعتمادها في تحليل المجتمعات الابوية السابقة للحداثة او المجتمعات التي هي على عتبة الحداثة؟ كيف يمكن لمجتمع تقليدي سابق للنظام الرأسمالي ان ينتقل من حالة الابوية الى حالة الحداثة وان يقيم نظاماً عقلانياً ويحقق العدالة الاجتماعية؟ ما هي العلاقة في المجتمع الابوي والابوي المستحدث بين القاعدة الاجتماعية الاقتصادية والنظام السياسي الايديولوجي المُمَثَّل بالقيم والعلاقات الابوية المتجسِّدة في مختلف الانظمة العربية، وكيف يمكن تغييرها؟

ما يعصى عليّ فهمه ليس الصعوبات النظرية في الفكر الماركسي الذي لا مهرب منه لعالم الاجتماع والمؤرخ والناقد الحضاري، أو الاخطاء التي ارتكبتها الانظمة الاشتراكية في القرن العشرين، بل موقف المثقفين العرب من الماركسية والاشتراكية بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وانتهاء الحرب الباردة. لقد هلّلنا للماركسية والاشتراكية عندما كانت هذه هي الـ"موضة" الرائجة في الستينات، والآن نهلّل

لنظام الديمقراطية والتعددية والسوق الحرة وحقوق الانسان!

ترى ما سيكون موقفنا عندما نكتشف ان هذا النظام الجديد ليس سوى النظام الرأسمالي القديم، باستغلاله الطبقي وديمقراطيته الكاذبة وجشعه الاستعماري الذي قامت الاشتراكية لتغييره واستبداله بالنظام الانساني العادل؟

## ٩

أنظرُ الى رؤوس الاشجار تتمايل وخلفها السماء الزرقاء ويعود اليّ نغمٌ كنا ننشده في المدرسة الاستعدادية في رأس بيروت: "نحن الشباب لنا الغد ومجده المخلّد".

الغد لا نكتشف كذبته الا عندما يصبح أمساً، عندما نتوقف فجأة ونكتشف ان الزمن، زمننا، قد ولّى. في تلك اللحظة يتوقّف تدفّق الزمن. وفي ومضة خاطفة يعود الحاضر الذي مضى.

أنظر الى الأشجار والسماء التي حدّدها اطار النافذة: الاشياء، خارج هذه اللحظة، رمادية غامضة كالغد الذي كنت اركض اليه. فجأة ودون انذار يتدفّق فيض الالوان، كفيلم غير ملوّن يصبح بلمحة بصر ملوناً.

ادرك تمام الادراك ان هذه الصحوة عابرة وان هذا الحضور لن يستمر طويلاً.

تمر في ذهني افكار وصور استحضرها من غابر السنين. وجوه لم ارها منذ الطفولة وكلمات غابت عن ذاكرتي منذ عقود، وكتابات قرأتها وافكار استقرت في ذاكرتي. كلها تتدفّق بوضوح مدهش. اغمض عينيّ واحسّ بفرح جارف يغمرني.

استعيد ملامح الغريب المسنّ الذي شاهدت وجهه في المرآة هذا الصباح، ولا اشعر الآن بالأسى الذي ملأ قلبي. اشعر الآن بعطف نحوه. عادة لا نرى الا تلك الأنا الشابة التي نعيشها في داخلنا الى أن يأتي اليوم الذي نكتشف فيه دون ان نصدّق انها هي هذا المسنّ الذي ينظر الينا من المرآة.

اذكر كلمات صديقي الشاعر ادونيس في رسالة احتفظ بها: "في شبابنا، نرى (أرى) الموت شاباً. في الشيخوخة، اراه شيخاً. تصوّر: الموت شيخاً! موتان في اللحظة الواحدة! قد يكون الموت ـ الشاب جميلاً. اما الموت ـ الشيخ... كأني أراه يدب على عصاه متهالكاً ـ يتّجه نحوي. منظر لا يسرّ.

كيف نغيّر المنظر؟ أبالصداقة؟ أبالحب؟ أبالكتابة؟"

لا تخيفني الشيخوخة يا ادونيس. أتوقّعها كما اتوقّع سفراً الى بلد بعيد لا اعرفه وان كنت اعرف عنه الكثير. ما يخيفني هو نهاية الصيف، نهاية حياة منفتحة على العالم. اقشعرّ عندما ارى نفسي وحيداً، منغلقاً على نفسي، ليس في حياتي الا صحتي والطبيب والدواء.

## ١٠

منذ سنوات، أثناء قراءة مقالة في كتاب لمونتاين، وقعت على سطر هزّني في أعماقي. ثم فقدت الكتاب، ونسيت كلمات مونتاين. الى ان حدث ذات يوم، وكنت في لندن في زيارة صديقي ياسين، ان عادت الكلمات الى ذاكرتي، فقضيت يوماً بكامله ابحث عن الكتاب في مكتبات لندن الى ان وجدته في مكتبة صغيرة في

Montaig

كينسنجتون. قرأت المقالة كلمة كلمة، لكني لم اعثر على المقطع الذي هزّ كياني.

احاول الآن استعادة هذه الكلمات كما تخيّلتها: تأتي لذي الحظ برهة في الحياة يستفيق فيها قبل فوات الاوان فيضع الامور التافهة التي شغلته عن حياته جانباً ويفتش عن ذاته التي فقدها.

بالعودة الى الذات يقصد مونتاين الذات الطبيعية، "ذات" العيش اليومي، وهي غير التي دعا اليها ميخائيل نعيمة في فلسفته الصوفية، بل الذات "الحقيقية"، الذات "الجوّانيّة" التي ترفرف فوق "الأنا" اليومية المعاشة.

ليس لدي رغبة في الخلاص او العودة الى ذات روحية عليا مثل تلك التي نادى بها نعيمة. ليس هناك غير هذا الجسد وهذه الحياة وهذه الأنا. كل ما اصبو اليه الآن هو عيش ما تبقى من العمر في وئام مع هذه الذات التي اعرفها وتعرفني. كل ما اتمناه هو الحفاظ على نشاطي الفكري والجسدي، على مجابهة المرض والتغلب على الضجر.

كيف لي ان أؤمّن كل هذا؟

## ١١

افكاري تنتقل من موضوع الى موضوع. تقفز كالعصافير من غصن الى غصن دون كَلَل او تعب، فأحاول اللحاق بها.

ولأني اكتب ببطء لاً استطيع الامساك بها احياناً. لا اعرف كاتباً أبطأ مني فيما اكتبه الا صديقي ياسين. فانتاجه لا يتعدى بضعة اسطر في اليوم. غير اني لا احسد الذين يكتبون بسرعة. هؤلاء لا

يأتيهم الوحي الا باحتساء القهوة المرّة وتدخين السيجارة تلو السيجارة. السريع في الكتابة هو الذي يمتطي الكلمات كما يمتطي حصاناً جامحاً يسير به في الاتجاه الذي لا يختاره. اما الذي يكتب ببطء (مثلي ومثل ي. س.) فيصارع الكلمات وهي تصارعه الى ان يخضعها او يترجّل عنها، ويجد غيرها، فيلجمها او يتوقّف عن الكتابة.

الكتابة للمنفي، مثلي، هي الوطن الباقي. لذا اشعر بالغربة عندما اكتب بالانكليزية. فرغم عراكي مع الفصحى، اشعر نحوها بحب عميق. درستها صرفاً ونحواً على موسى سليمان وانيس فريحه وتعلمتها خطاً رقعياً على يد الشيخ نسيب مكارم الذي كان يفرك اذني بقسوة لم اختبر مثلها في حياتي الدراسية كلما اخطأت في كتابة الراء او الواو او الياء المقصورة(ربما الامر الذي جعلني اكبت في اللاشعور خوفاً عميقاً من "الكتابة" بالعربية). ما زلت ارتكب افدح الاخطاء في الصرف والنحو. وخط يدي ما زال معوجاً في رائه ويائه وواوه. واكاد اعجز أحياناً عن تمييز ما أخطّه بنفسي.

## ١٢

كيف أصف المشهد السوريالي الذي يتمثل لي في هذه اللحظة ويثير في نفسي مشاعر الاسى والعبث ذاتها التي شعرت بها عند رؤيتي له؟

بيروت، شتاء ١٩٧١. نحن في الطريق الى المطار. جنازة تعرقل السير. يتوقف السائق الى جانب الطريق. انزل من السيارة وأقف. رجال ملتحون يرتدون اللباس القروي والقنباز وعلى

رؤوسهم عمائم بيضاء يرفعون على الأكفّ تابوتاً خشبياً يعلو ويهبط بين العمائم كقارب تتقاذفه الامواج. الريح الغربية تهب قاسية من جهة البحر وتملأ الجو بالرمال وتغلف الناس بستار رمادي يزيد من خيالية المشهد. يقول السائق: "انها جنازة فريد الاطرش. جاؤوا بجثمانه من مصر ليدفنوه في جبل الدروز." شاهدته قبل أيام على شاشة التلفزيون في مقابلة اجريت معه قبل عرض الفيلم الذي يقوم فيه بدور شاب تقع في غرامه النساء مع انه في اواخر الخمسينات من عمره. سأله المذيع عن سبب كرهه للزواج، فأجاب: "الفنان لا يمكن ان يكتفي بأمرأة واحدة!"

يغيب تابوته عن نظري بين العمائم، وأصعد مسرعاً الى السيارة لنصل الى المطار قبل ان تقلع الطائرة.

## ١٣

في هذه الغرفة البيضاء الباردة اشعر بحنين جارف الى زوجتي والى ابنتي ليلى، الى بيتي وكل خاص وحميم في حياتي.

في المساء نجلس حول مائدة الطعام. الكلب الصغير هنري يقفز الى كرسي بجانبي، كأنه يتوقع مشاركتنا في الطعام. عندما نتحدث يدير وجهه الى المتكلّم وكأنه يتابع ما يقوله. ندير التلفزيون لسماع الاخبار فيركّز اهتمامه مثلنا على الشاشة الصغيرة.

ليلى ستغادرنا خلال أيام. تخرجت من الجامعة. أصبحت في الثانية والعشرين. بالامس القريب كنت اسرد عليها القصص عن نديم ومغامراته الخيالية. سألتها اذا كانت تذكر تلك الحكايات. قالت: "اتذكرها بحذافيرها ولم اصدق واحدة منها." اذكر كيف

كانت عيناها تمتلئان بهجة وحماساً وهي تجلس الى جانبي لأروي عليها قصة اخرى. كنت اظن انها صدّقت كل ما رويته عليها من مغامرات نديم (نقولا تادرس). حبنا لاولادنا هو الحب النرجسي الكامل. نحب انفسنا بواسطتهم. انه حب لا يقتصر على صفة من صفاتهم او على فترة من حياتهم بل يشمل شخصيتهم وحياتهم كلها. انظر الى وجه ليلى وارى الطفلة التي كانت تمسك بيدي ونحن نسير على الكورنيش عند الغروب وادلّها حيث كنا نسبح في بحر الجامعة عند عين المريسة. اسمع صوتها تكلمني على الهاتف بعد وصولها الى المدرسة الداخلية في كونتيكت وهي تغالب البكاء بشجاعة. تقول بصوت متهدّج انها جلست الى مائدة الكافيتريا ولم يحادثها احد. انها وحيدة ولا تعرف احداً. والآن، ستذهب الى مدينة بعيدة وستفتش عن عمل. ليلى الصغيرة لوحدها في مدينة شيكاغو.

زوجتي مولعة بالحدائق. انها الآن في الخمسينات. اراها تعمل في حديقتنا الصغيرة. ترفع رأسها وتنظر نحوي. السنون لم تغير ملامحها الوسيمة. اتصورها الآن كما كانت عندما التقيتها لاول مرة. نادراً ما ارجع بذاكرتي الى تلك الايام. تخطر على بالي أكثر عندما اسافر في رحلة طويلة، فما ان تقلع الطائرة حتى اشعر بحنين اليها واعاهد نفسي بأن اجد وسيلة تعبّر عن مشاعري نحوها حال عودتي. اخطط لنمط جديد في حياتنا. وبعد ان اعود يزول الحنين واغرق في الروتين اليومي، وانسى لحظة الرؤيا.

## ١٤

اكثر ما يدهشني اندفاعي المستمر الى تغيير نفسي. ما زلت

اسعى الى تحسين قدراتي، للاستفادة من الدروس التي اتعلمها من خبرتي وقراءاتي. ويدهشني أكثر استمراري في هذه المحاولات رغم فشلي المتكرر، كأني ما زلت اتطلع الى مستقبل يمتد الى ما لا نهاية.

قبل دخولي المستشفى بحادثة التسمم حدث معي ما يقع لي مراراً وانا اقود سيارتي الى الجامعة. ارى سيارة تحاول اجتيازي، وسائقها يضغط على البوق، فأزيد من سرعتي وامنعه من اجتيازي. فيزيد هو من سرعته الى ان نصل الى ضوء أحمر، فنتوقّف وننظر الى بعضنا البعض شزراً. ثم يتغير الضوء الى أخضر، ونستمر في السباق.

كل مرة اقول لنفسي، بعد ان تهدأ اعصابي، ان هذا التصرف غير لائق باستاذ جامعي يدعو الى المسلك العقلاني والتغلب على العنتريات الذكورية، فأعد نفسي بأن احافظ على برودة اعصابي وامتنع عن الدخول في هذه الرياضة الصبيانية، وان لا "أضع راسي براس" اي سائق أرعن يريد تجاوز سيارتي الصغيرة. لكن اقع في الفخ ثانية عندما يفاجئني سائق لئيم يقود سيارة مرسيدس سبور حمراء تبدو كالعروس الشابة بالقياس الى سيارتي الهرمة.

وبعد كل محاضرة القيها او نقاش اشترك فيه ما زلت انتقد نفسي واحاول، في مخيلتي، تصحيح ما ارتكبته من هفوات في الاسلوب والمضمون. يبدو لي اني لم اصل بعد الى المستوى الذي كان عليه اساتذتي والكبار الذين عرفتهم في حياتي من الوقار الذي يتجسّد، في المجتمع الابوي، في هيبة المركز وتقدّم السن، في اللهجة الآمرة والاسلوب المترفع.

خمس سنوات، بالاكثر عشر: ربما هذا ما تبقّى لي من عمري. اسائل نفسي: كيف سأحيا هذه البقية الباقية من حياتي؟ ارسم الخطط في ذهني، اتمسّك بصحوة الوعي، واعد نفسي

باسترجاعها صباح كل يوم.

لحظات الرؤيا لا تأتي الا في حالات المرض أو الخطر، ثم فجأة تختفي، ونعود نستقلّ قطار الايام السريع السائر الى النهاية.

## ١٥

تقاعدي اصبح على الابواب. تفاجئني رسالة من شركة التأمين الصحي تنبهني فيها الى اني اصبحت في سن يؤهلني الحصول على الضمان الصحي الشامل وعلى تخفيض عشرة بالمئة من سعر الدواء ومن سعر تذكرة السينما والباص لاني أمسيت في خانة المواطنين المسنين.

كانت سنّ التقاعد الاجباري في الجامعات الاميركية الخامسة والستين، الا ان قانوناً صدر مؤخراً الغى التقاعد الاجباري واعطى الاساتذة الحق في تأجيل موعد تقاعدهم الى السبعين وما بعد.

لو اني قررت التقاعد في نهاية هذه السنة فما الذي سأفعله في اوقات فراغي؟ هل أعود الى الوطن؟ اين "وطني" الآن؟ الضفّة الغربيّة، أدخلها بجواز سفر اميركي لستة اشهر قابلة للتجديد؟ أم لبنان، حيث يسمح لي بالاقامة لمدة ثلاثة أشهر فقط؟

في ايام الثقة والامل، كنت احلم بالتدريس في جامعة الكويت. لكن حصولي على تأشيرة دخول الى الكويت اليوم اصعب من حصولي على تأشيرة دخول الى اسرائيل.

بقي الاردن، أقرب البلاد الى مسقط رأسي. هذه الاعشاب وهذه الأشجار وهذه الصخور وهذه التلال وهذا النسيم وهذا الصعتر وهذه الخضار، هي كلها امتداد لفلسطين وطبيعتها وارضها.

أول ما افعله كلما توقفت في عمان لبضعة ايام هو الذهاب برفقة امين او خالد او مصطفى الى النهر او الى قلعة الربض او الى مرتفعات البحر الميت لرؤية جبال فلسطين وسمائها. وعندما استيقظ في عمان وافتح النافذة وارى اشعة الشمس الذهبية يمتلىء قلبي بالفرح، واتذكر فصل "راس روس" في كتاب خليل السكاكيني الذي تلقيت فيه اول دروس اللغة العربية، واحسّ على وجهي "اشعة الشمس الذهبية" (كما وردت في احد دروسه الاولى الذي كانت تقرأه علينا مس لبّاط في الغرفة الواسعة الملأى بنور الشمس في مدرسة الفرندز للبنات).

لا استطيع اتخاذ القرار الآن. لا يزال هناك متسع من الوقت. اهتمامي الآن ليس بالمكان، بل بما سأكون فيه من حالة صحية. المكان هو الجسد الآخر الذي نملك بعض السلطة عليه.

عندما آوي الى غرفة نومي واجلس في سريري مسنداً ظهري الى المخدات الاربع العريضة ما يساعدني على القراءة، احس بطمأنينة عميقة. في متناولي كتبي التي اقرأها في المساء، والى جانبي الراديو الذي استمع منه الى الموسيقى عندما اكون تعباً. وفي الخارج الليل اسود حالك والصمت لا يقطعه الا صياح خافت متقطع لما صمد من صرّار الليل في نهاية الصيف. اني في المنفى، لكن هذا المنفى هو بيتي وعملي.

عندما اقفل الراديو واطفيء الضوء ابقى احياناً جالساً في الظلمة. وقبل ان يغلبني النوم اذكّر نفسي بان الزمن قد قارب على النفاد، فلا يختلج قلبي ولا اشعر بحزن او اسى. اغمض عينيّ واغرق في النوم. ليت الموتَ نومٌ!

وهكذا، بعد مرور سنة كاملة على عملية الاستئصال وتسمم الدم، سنة مليئة بالمشاغل والعمل والسفر، يُظهر الفحص الذي

اجراه الدكتور سعيد كرمي امس وجود سرطان في الغدة البروستاتية. واليوم سيبيّن الفحص الحاسم فيما اذا كان السرطان ما زال محصوراً في الغدة او انه انتشر في انحاء الجسم واخترق العظم.

## ١٦

استيقظ باكراً. اجد زوجتي قد ارتدت ثيابها استعداداً لمرافقتي الى المستشفى. ومع اني هيّأتُ نفسي لمجابهة هـذا اليوم لوحدي، فهي تصرّ على مرافقتي. بعد وصولنا الى المستشفى احاول اقناعها دون جدوى بعدم الانتـظار والعـودة الى البيت. دون جـدوى. "سأجلس في الكافيـتريا واقـرأ حتى تنتهي الفحـوص. لا تشغـل بالك."

يقع قسم التصوير الالكتروني في الطابق الثاني من المستشفى. اسجّـل اسمي ثم اخلع ثيـابي وارتـدي القميص واللبـاس اللذين اعطتني اياهما الممرضة واجلس في غرفة الانتظار، وأفتح كتاباً لهيدجر احضرته معي عنوانه "الشعر، اللغة، الفكر." همّي الآن السيطرة على اعصابي ومنع الخوف من الاستيـلاء على مشـاعري. اقـرأ في صمت الغرفة الفارغة، لا اسمع ولا ارى الا ما كـانت تبوح بـه كلمات هيدجر عن "الشيء". اخيراً تحضر الممرضة. تأخرت بسبب عطل في احدى ماكينات التصوير الالكـتروني. تسير بي الى غـرفة معتمة ملأى بالآلات من انواع واحجام مختلفة.

اجرتْ فحص العظم امرأة في مطلع الثلاثينات، جميلة الوجه نحيفة القدّ. سألتني هذه الاخصائية وانا مستلقٍ تحت الآلة المثبتة في السقف عن اختصاصي الاكاديمي. وعندما اخبرتها اني ادرّس التاريخ

قالت انه كان المادة المفضلة لديها في جامعة اوهايو.

استغرق الفحص قرابة ساعتين. التقطت الاخصائية عشرات الصور من كافة الجهات. كانت تمسك بي كأنها تمسك بلعبة بين يديها: ترفعني، تقلبني جانباً، تمددني على ظهري او على جانبي دون اية صعوبة او تردد. في نهاية الفحص قالت انها ستدخلني في انبوب التصوير الهيكلي، وهو آلة مستديرة تجري مسحاً عن الهيكل العظمي. امسكت برقبتي بيد ووضعت اليد الاخرى بين ساقي، ثم لوتني بخفة المصارع ودفعتني بسرعة مدهشة داخل الانبوب. فوجدتني فجأة حبيساً حتى رقبتي لا استطيع حراكاً. تذكرت تلك اللحظة، لحظة انتهت فيها براءتي، يوم ذهبت، برفقة لبيب وعبد اللطيف الى احد البيوت خلف ساحة الشهداء. سألتني سولونج (يحضرني اسمها فجأة!) وانا متمدداً على الفراش لا ابدي حراكاً، وهي الى جانبي جالسة على ركبتيها، عارية تماماً الا من ابتسامة لطيفة: "كيف بتريد؟" لا افهم سؤالها. فتسألني مرة اخرى وهي تلمسني برفق. وعندما لا اجيب، تمسك بي كما امسكت بي الممرضة الآن، وترفعني بخفة مدهشة وتطعجني الى جانبي فلا ادري الا وانا في قبضة مُحْكمة كما كنت الآن.

## ١٧

انزل الى الطابق الرابع لاجراء الفحص الآخر (السونوغرام). الساعة قد قاربت الثانية عشرة. تقول الممرضة المداومة عندما اسجّل اسمي: "انتظر هنا، سيحضر الدكتور كرمي لرؤيتك بعد قليل."

اشعر بالبرد، واجمع اللباس الرقيق حولي وافتح كتاب هيدجر.

اشعر بما يشبه الدوران. احسّ باني ارى الاشياء كما نرى الاسماك من وراء حاجز زجاجي. انظر الى الصفحة امامي فارى الحروف بارزة سوداء كأنها تطفو على سطح الصفحة. عادة لا ارى الحروف عندما اقرأ. الصور والاصوات تختلط في ذهني. تمر لحظات، وعندما ارفع رأسي عن الكتاب، لا ادري اين انا او ما يحدث حولي.

عندما يصل سعيد اسأله اذا كان للدواء الذي تناولته قبل الفحص تأثيرٌ على الشعور. ويعلمني ان هذا ليس دواء بل سائل ملوّن يحتاج اليه التصوير ولا تأثير له على الاطلاق. ويسألني عما تناولت من طعام او مشروب في الليلة الماضية. فلا استطيع الاجابة بوضوح. لا استطيع العودة بفكري الى "الليلة الماضية". "الان" و"الامس" يختلطان في ذهني. احاول ان اشرح له ما كنت اشعر به في تلك اللحظة من ارتباك وغموض ذهني. اسمع كلماتي كأنها صادرة من فم شخص آخر. انا المتكلم والسامع في آن. افهم الكلمات التي اتفوّه بها من الداخل واسمعها بالوقت ذاته من الخارج. اتوقف عن الكلام لاستجمع افكاري. تختلط في ذهني كلمات هيدجر وما حلمت به الليلة الماضية وما كان يخطر ببالي من تصورات وافكار في هذه اللحظة. لم اعد افرّق بين ما هو واقع وبين ما هو خيال، بين ما افكر به انا وبين الاحاسيس التي تأتيني من الخارج، بين ما هو حاضر وما هو غائب.

اظن ان سعيد لاحظ ارتباكي. ربما عزا تخبطي في الكلام الى القلق والارهاق. وضع يده على كتفي وقال لي مطمئناً ان كل شيء على ما يرام. ثم سار معي الى غرفة السونوغرام وقال: "سأجيئك بالنتائج بعد انتهاء الفحص. انتظرني بعد ان ترتدي ثيابك."

تجربة سوريالية اخرى تنتظرني في غرفة السونوغرام. تناولني الممرضة وعاء بلاستيكياً ضخماً مليئاً بسائل ابيض وتقول: "اشرب

ببطء.» اشرب الكأس تلو الاخرى بشكل آلي، ثم اتمدد على منصة التصوير. تسألني اذا كنت بحاجة الى التبويل. اعلمها اني فعلت بعد الفحص السابق ولا اشعر بحاجة الآن.

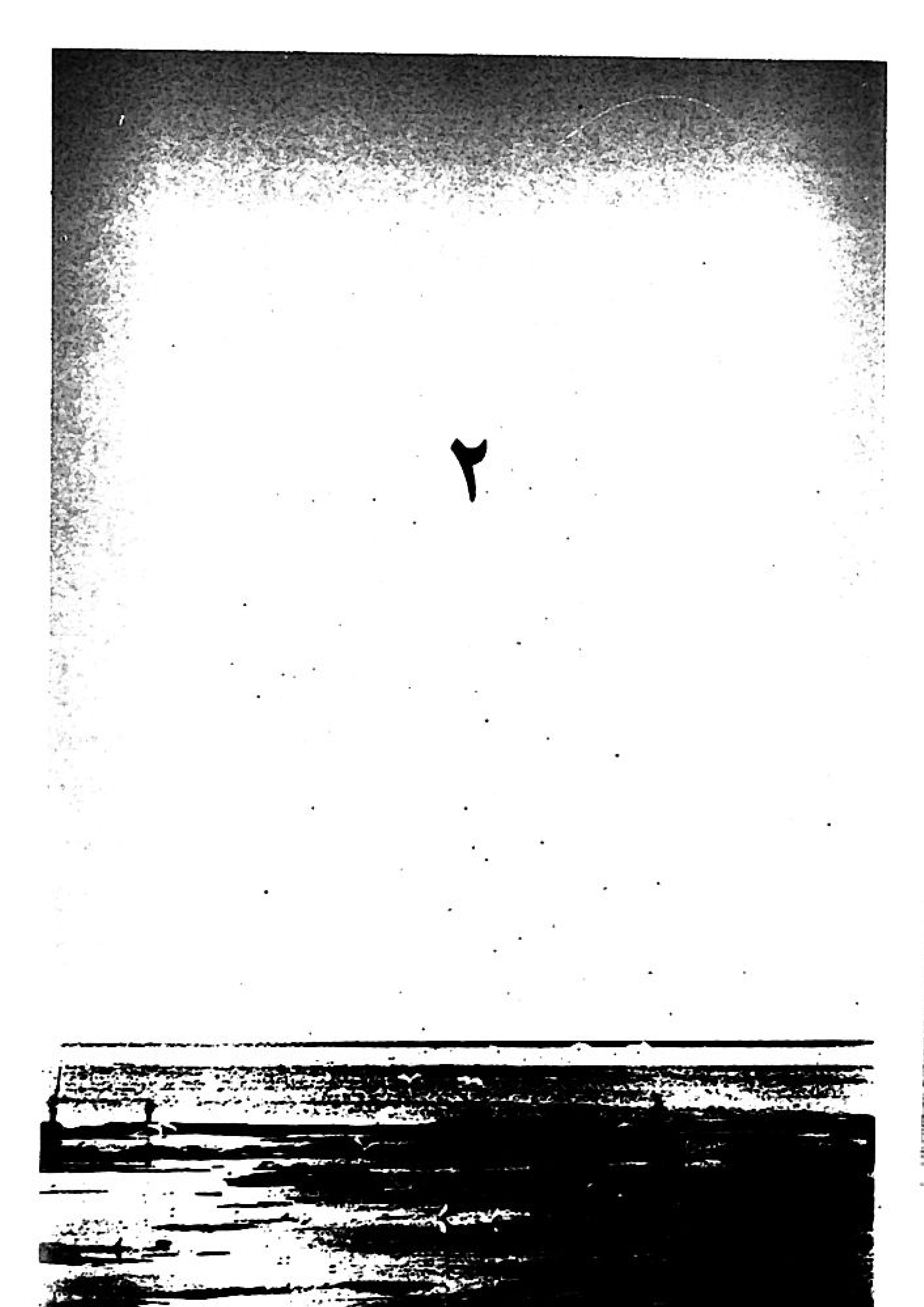
في الغرفة ثلاث ممرضات تقوم كل منهن بدور محدّد. تغرس احداهن ابرة في ذراعي الايمن وتعلّق الزجاجة بعامود يقف الى جانب المنصة. واشعر فجأة بحاجة الى التبويل. اهمس في اذن الممرضة القريبة: "اريد الذهاب الى الحمّام." تقول لي اني لا استطيع مغادرة الغرفة وعليّ ان ابوّل حيث انا. انظر حولي. السائل الذي شربته يكاد يفجّر امعائي. كيف ابوّل امام الممرضات الثلاث. تناولني وعاء التبويل وتقف هي وزميلتاها ينظرن اليّ. احسّ بالفزع، الفزع ذاته الذي هيمن عليّ منذ بضعة اشهر عندما دخلت في فترة الاستراحة، خلال مؤتمر كنت اشارك فيه ببرلين، الى دورة المياه. ما ان جلست فوق المرحاض حتى تناهى الى مسمعي اصوات نسائية. ادركت على الفور اني في دورة مياه السيدات. رفعتُ بنطلوني وفتحت الباب وركضت خافيا وجهي بصفحة يدي.

تأخذ الممرضة الوعاء من يدي وتطفيء النور وتبدأ بعملية التصوير. اغلق منافذ الحس في ذهني كما اغلق نوافذ غرفتي عندما اطلب العزلة التامة. اني منعزل عن العالم، محصّن في الظلمة الساكنة، لا يراني احد. كأنها العودة الى الرحم.

اعرف سبب الفوضى في نفسي. انها التحصينات الذهنية التي اقمتها لأدفع عني الخوف. ركزت كل قواي على الهرب. فكدت اهرب من الذات ومن العقل الواعي. كان الضغط، كما يبدو، اقوى مما يتحمله جهازي النفسي. فغبت عن الأنا. اصبحت خارجها، لا قدرة لي على امتلاكها، حتى لامست حدّ اللاوعي، حالة الهذيان. غير اني تماسكت في اللحظة الاخيرة وتراجعت عن شفير الهاوية.

ارتديت ثيابي بسرعة وجلست في غرفة الانتظار، وقد عاد اليّ صوابي وتمالكت اعصابي تماماً. قلبي يدق بشدة الا اني سيّد نفسي الآن وعلى استعداد لمجابهة ما سيأتيني به سعيد من اخبار.

حالما ارى الابتسامة على وجهه الوسيم اعرف ان النتائج جيدة. "كما قلت لك. لم يحصل انتشار. اطراف الجسم سليمة ولا يوجد شيء في العظم. السرطان محصور في الغدة، وسنجري عملية الاستئصال في الوقت الذي تحدّده."


٢

# ١

على حائط مكتبي مجموعة صور فوتوغرافية لمدينة عكّا اراها صباح كل يوم. التَقَطَتْ هذه الصُوَرَ حسب توجيهاتي الدقيقة مديرة مكتبنا الاميركية اثناء زيارة قامت بها الى فلسطين منذ بضع سنوات. رسمْتُ لها خارطة الشاطيء العربي خارج السور، حيث كان يقع بيت جدي بالقرب من دائرة البوليس والجامع، واشرتُ الى المكان والساعة لالتقاطها.

في الصورة الاولى يظهر الشاطيء باتجاه الشمال ورأس الناقورة، من مكان يقع بالقرب من "المفجر" الذي لا يبعد كثيراً عن بيت جدي. في الصيف، عندما تكون سماء عكا زرقاء صافية يمكن رؤية رأس الناقورة (الحدّ الفاصل بين فلسطين ولبنان) من الشاطيء. كنت اجلس في هذا المكان فوق صخرة أكاد اتبيّنها في الصورة، تطلّ على "النيل"، كما كنا ندعو المنطقة العميقة من البحر الواقعة خلف صخور الشاطيء، واصطاد السمك بواسطة القصبة

والصنّارة. ولَمّا يمتنع السمك عن الالتفات الى طعمي اضع قصبة الصيد جانباً واسند ظهري الى الصخرة الدافئة وآخذ في قراءة كتاب كنتُ أحضرته معي احتياطاً، الى ان يحين موعد الغداء فأسير الى البيت حافي القدمين فوق رمال الشاطيء الخشنة.

الصورة الثانية التُقِطَتْ من الشاطيء عند المغيب، وتبدو فيها الشمس قرصاً مدوّراً، يشع ضوءها من خلال الغيوم الرمادية وينعكس خطّاً ذهبياً فوق الامواج المتكسِّرة على الصخور. كنت أرى هذا المنظر من شرفة بيت جدي المطلّة على البحر حيث اجلس أحياناً عند الغروب وبين أصابعي مسبحة وأغرق في الافكار واحلام اليقظة. هنا، ونحن صغاراً، كنا نستحم في الصباح الباكر في المياه الدافئة الشفّافة. كنا نقف فوق الصخرة المشرفة على "النيل" فتصل المياه الى خاصرتنا ساعة المدّ، ثم تنحصر بسرعة فنقفز الى المياه العميقة ونسبح قليلاً ثم نعود مسرعين مع عودة المدّ الذي يحملنا فوق الصخور، نفتّش بأقدامنا عن موقع نقف عليه، مما كان يتطلب مهارة في التوازن والتوقيت. وكثيرا ما دحرجتنا الامواج اذا لم نجد مكاناً نقف عليه، فنفقد توازننا ونقع على الصخور مع انحسار المياه السريع، فتدمى ركبنا وأكواعنا. في هذا المكان أيضاً كنا نصطاد السمك في الايام المؤاتية، اي عندما تهب الريح الشمالية وتنخفض الغيوم وتتعكر مياه البحر. كان نوعا السمك اللذين يحلو لنا صيدهما بالقصبة والصنّارة، هما البوري والسرغوس. لكننا نادراً ما تمكنا من اصطياد هذين النوعين الفاخرين. كنا في الغالب نصطاد "القرّاص" او "البلشفيك"، كما كانوا يسمّونه في بيروت لسبب ما، وهو سمك ناعم الجلد ذو زعانف حادة ما ان تصيب اليد حتى تلذعها وتحدث ألماً شديداً لا يدوم طويلاً. لهذا كلما تقوصت قصبة صيد في يد احدنا، حذّره الآخرون: "دير بالك، قرّاصة!". كان الشارع

الرئيسي خارج السور المحيط بعكا القديمة ينتهي في الموقع الذي التقطت منه هذه الصورة، ومن هذا الموقع يمكن رؤية كل ما يجري على الشاطىء.

اذكر يوماً في صيف ١٩٣٨ (وكنت في الحادية عشرة من عمري) وانا على وشك ركوب السيّارة مع والدتي لقضاء ما تبقى من الصيف في لبنان. سمعت صفير صديقي كامل الذي كان يصطاد السمك في مكاننا المعتاد، ورأيته يلوّح لي بيد ويمسك باليد الاخرى قصبة الصيد التي تقوست بسبب ضغط السمكة العالقة بالصنّارة. وفي اللحظة التي انطلقت فيها السيارة بالرحلة، رأيت كامل يشد القصبة بكلتا يديه وهو يصيح "بورية، بورية". وقبل ان يغيب عن ناظري، رأيت لمعة البوري الفضيّة،وكامل يمسك بخيط الصنارة رافعاً بورية ضخمة، اظنها البورية الوحيدة التي اصطادها احدنا في تاريخ حافل باساطير الصيد.

اما الصورة الثالثة فتمثل امتداداً للصورة الثانية. اذ التقطت من الموقع نفسه باتجاه الغرب. في تلك الفترة من النهار عندما كان الشارع المحاذي للشاطيء يخلو من المشاة وتختفي اصوات بائعي الكعك والفستق عبيد والنمورة، كان لا يُسْمع الا هدير الامواج الخافت. انظر في الصورة الى الافق الوردي البعيد وأشعر في هذه اللحظة بهواء عكا يلامس وجهي ويعيدني الى ذكريات الصيف فيها.

ادير نظري الى الصورة الرابعة التي تظهر فيها بركة الشيخ اسعد وخلفها السور، وفي الافق البعيد جبل الكرمل. عند السور ينتهي الشاطيء الذي كان ملعبنا الممتد حتى "المفجر" ومزار الشيخ عز الدين شمالاً. كانت بركة الشيخ اسعد تحتل مكانا مركزياً في جغرافية عالمنا. سمِّيت باسم الشيخ اسعد لانها كانت تقع مقابل

بيته. والشيخ اسعد هو الشيخ اسعد الشقيري، خرّيج الأزهر حيث درس على الأفغاني وعبده، واصبح فيما بعد احد امناء مكتبة السلطان عبد الحميد وعضو مجلس المبعوثان في استانبول اثناء الحرب العالمية الاولى. وقد ذكره لورنس في كتابه "أعمدة الحكمة السبعة" (Seven Pillars of Wisdom). كنا نراه أحياناً يجلس وحيداً بعمامته الضخمة ولحيته الكثة على شرفة بيته الواسعة، ينظر الى البحر دون حراك. كان يستقبل ضيوفه ومن بينهم جدي في ايام محدّدة في الاسبوع، فيتكلم بصوت منخفض بسبب مرض في انفه، والجميع يستمع اليه بصمت، ولا اظن ان احداً ممّن كان يستضيفهم لا يزال حياً. توفي الشيخ اسعد بعد مدة قصيرة من اغتيال ابنه الدكتور انور على يد الثوّار. كان انور طبيباً معروفاً، وكنت اسمع امي وجدتي وخالاتي يتحدثن عنه باعجاب. وكان كلما مر امام بيتنا، تحدث في البيت ضجة ويسرع الجميع الى مشاهدته من النافذة المطلة على الشارع الرئيسي. لم يكن تجاوز الثلاثين من عمره عند اغتياله.

ليلة امس رأيت عكا في منامي. كنت اسير حافي القدمين على الشاطيء في طريق عودتي الى البيت. وحين اصل الى الشارع اجد امامي حاجزاً من الاسلاك الشائكة يمتد على طول الشاطيء. فاتذكّر فجأة ان عكا هي الآن في "اسرائيل". افتش في جيوبي عن جواز سفري فلا اجده. وفي تلك اللحظة يبرز امامي شرطي اسرائيلي يرتدي زي البوليس البريطاني ايام الانتداب، فيما هو يمدّ يده نحوي. ثم استيقظ، والعرق يتصبب من جبيني.

اذكر الآن مشهداً آخراً لست ادري ان كان حلماً حلمته في سن المراهقة او حادثاً وقع بالفعل وغاب في أعماق ذاكرتي. كنت اسير في فترة الظهيرة بمحاذاة بركة الشيخ اسعد، وكان الحرّ شديداً والشاطيء خالياً من الناس. وفجأة رأيت فتاة في الرابعة عشرة او

الخامسة عشرة من عمرها، ترتدي مايوه سباحة أحمر اللون. طويلة القامة، ممتلئة الجسم، وعلى وشك أن تضع قدمها العارية في الماء. وفجأة استدارت نحوي، كأنها شعرت بأني اراقبها، وابتسمت كأنها تعرفني. فارتبكتُ وادرتُ وجهي وصعدت الى الشارع راكضاً. اظن انها كانت المرة الاولى التي ارى فيها جسد امرأة.

الصورة الاخيرة التقِطَتْ من موقع داخل السور في المدينة القديمة، بالقرب من الكازينو المطلّ على الثغرة الواسعة التي احدثتها الامواج والاعاصير عبر السنين في السور الغربي عند نقطة نتوئه القصوى في البحر، وتشير الظلال والاضواء الى ان الصورة التقطت في طقس غائم، وتظهر تجعدات سطح الماء في البرك الهادئة بين الصخور ان الريح كانت تهب من الشمال. تلاشت زرقة السماء وراء الغيوم الرمادية العالية التي ظلّلت وجه البحر بضوء شفاف. أما لون الصخور فكان رصاصيا غامقاً. وظهر عند حدود "النيل" صيّاد وحيد يصطاد بالقصبة. كثيراً ما توقفنا في هذا المكان في طريقنا الى السوق لنراقب الصيادين. كان كامل يعمل مساعداً في صيدلية اللبابيدي القريبة من مركز البوليس عند مدخل المدينة القديمة مقابل جامع الجزّار. وكانت فرصته الاسبوعية المؤلفة من نصف يوم تبدأ في الساعة الثانية عشرة من يوم الجمعة. كان يمر عليّ بعد الغداء، وقد ارتدى سترة ورباطة عنق، ونذهب الى داخل المدينة القديمة لتناول البوظة العربية في دكان صغير بالقرب من الميناء، وبعد ذلك لمشاهدة فيلم سينمائي في اول صالة سينما اقيمت في عكا في احد المباني القديمة في الساحة المحاذية للميناء.

كان لعكا القديمة في ذلك الوقت ثلاث بوابات. الاولى البوابة الشرقية وكنا ندعوها ببوابة سكة الحديد. والبوابة الثانية كانت تلك التي شيدتها حكومة الانتداب في منتصف السور الممتد من البوابة

الشرقية الى البحر. والبوابة الثالثة هي بوابة "السجن" في نهاية الشارع المحاذي للشاطيء حيث يقع بيت جدي. وكنا نذهب عادة عن طريق بوابة السجن لنراقب الصيادين امام الكازينو ثم نكمل سيرنا الى دكان البوظة مروراً بكنيسة الأرثوذكس.

## ٢

كان جدي في ذلك الحين في منتصف الستينات من عمره، في مثل سني عند كتابتي هذه السطور. قبل تقاعده في نهاية الحرب العالمية الاولى كان يحتل منصباً رفيعا في البصرة اثناء الحكم العثماني وانتقل الى عكا تاركا خلفه عالما انتهى مع الحرب العالمية الاولى وانهيار السلطنة العثمانية. أذكره شيخاً لا يخرج من البيت الا نادراً، يتقيد بنظام يومي دقيق اعدّته جدتي خصيصاً له. كان يمضي معظم اوقاته مرتدياً البيجاما والروب ديشامبر، يأكل خفيفاً في مواعيد محددة، ويستريح بعد وجبة الغداء. كانت جدتي تسمح له بتدخين نصف سيجارة مع فنجان قهوة ثلاث مرات في اليوم، في الصباح وبعد الغداء وعند المساء. كانت الصحيفة اليومية "فلسطين" تصل عند الظهيرة فتحتفظ بها جدتي حتى موعد القيلولة وتأخذها اليه الى غرفة النوم فيقرأها قبل ان يخلد الى النوم.

في الساعة الرابعة من كل يوم (ما عدا أيام الجمعة) كان يأتي لزيارته صديقه الحميم أحمد افندي حبيشي، فيجلسان في غرفة الاستقبال، اذا مال الطقس نحو البرود، حسب تقدير جدتي، او في الشرفة المطلة على البحر، اذا وافقت جدتي على ذلك، ويلعبان "الباصرة". وعندما ينتهيان من لعب الورق يجلسان يحتسيان القهوة

بصمت ولذة: أحمد افندي فنجاناً كاملاً مع سيجارة بكاملها وجدي نصف فنجان ونصف سيجارة.

اكثر من مرة شاهدت جدي يغتنم فرصة غياب جدتي في زيارة خارج البيت، فيدخّن سيجارة كاملة مع قهوته. كانت هذه مناسبة نادرة يخرج فيها عن ارادة جدتي.

كانت العلاقة بيني وبين جدي خاصة، يحكمها اسلوب التفاهم الرمزي الذي ينشأ بين جد وحفيده، بين شيخ وطفل. نادراً ما كان جدي يدخل معي في حديث مفصّل، إذ يقصر كلامه على اسئلة مبهمة يطرحها عليّ باسلوب مداعب. فإنْ رآني أحمل قصبة الصيد وأهمُّ بالخروج من البيت، استوقفني ثمّ سألني بصوت منخفض وبلهجة تآمرية: "الى أين تذهب؟"

وقبل ان اجيبه، يقول بصوت مرتفع: "آه، أدري، أدري، لاصطياد السمك."

ذات يوم، عندما علم بأني سألتحق بالجامعة الاميركية في بيروت، قال وهو يبتسم ابتسامته التآمرية منحنحاً: "آه، آه، اذن رايحين عَ بيروت."

كان عمري قد قارب الستة عشرة لكنه بقي يحدثني بلغته الخاصة التي اعتاد عليها مع حفيده الصغير.

لا اذكر جدي الا والابتسامة على وجهه. كان لطيفاً دمث الخلق. لم اسمعه يوماً يرفع صوته او يتكلم بغضب. وبما ان اعترافه بسلطة جدتي كان كاملاً لا مشروطاً، يتقبل آراءها في جميع المواضيع بصمت ودون تعليق، الاّ اذا جاوزت في نظريّاتها ما كان يعدّه خارج حدود العقل والمنطق، كما كان يحدث بين الفينة والاخرى، فقد أمّن جوّاً من السلام والطمأنينة في بيته لم أشهد مثله في بيت آخر. كانت نظريات جدتي تقع في ثلاثة حقول كان له منها موقف واضح، وهي

السياسة والدين والصحة. كنت اتوقع كلما تعدت جدتي "المعقول" في كلامها، ارتسام ابتسامة خفيفة على وجه جدي يتبعها تنحنح خافت يكاد لا يسمع: "آه... آه..." لذلك كانت جدتي دائماً على حذر عندما تبدأ بمناقشة هذه المواضيع، مترقّبة ردة الفعل السلبية بالنحنحة التي تعهدها. ومن نظرياتها المؤكدة التي كان جدي لا يقبل بها على الاطلاق ان موسوليني كان مسلماً اعتنق الاسلام سراً، وان بين اميركا وهتلر معاهدة سرية، وان شرب البابونج ثلاث مرات في اليوم يمنع سرطان الرئة.

نادرا ما كان جدي يخرج من البيت، وان فعل، فأمّا لزيارة الشيخ اسعد او حسن افندي، او للصلاة في الجامع الملاصق لبيتنا في المناسبات الخاصة، او لقص شعره مرة في الشهر عند حلّاقه ابو عزيز في السوق قرب جامع الجزّار. وكثيرا ماكنت ارافقه في هذه المناسبة الاخيرة.

كانت جدتي لا تدعه يخرج، حتى لقص شعره، الا مرتدياً احدى بذلاته الفخمة، وتختار له رباطة عنق من بين العشرات التي اقتنتها له عبر السنين ولم يضع منها الا القليل فبقي اكثرها جديداً، وتنصِّب الطربوش على رأسه وتسير معه الى الباب حيث تكون بانتظاره عربة الحنطور. ويصعد جدي إليها ويجلس فيها متكئاً على عصاه المتوّجة بمسكة فضية، فيبدو كأنه غير الرجل الذي اراه يومياً مرتدياً البيجاما والروب ديشامبر، ويعود الى ما كان عليه في الماضي، احد كبار موظفي الدولة السلطانية ومن اعيان المجتمع. كنت اجلس الى يساره فخوراً أمسك بعضاً من عظمة الافندية.

عند مدخل السوق كنا نترجل ونسير أمام الصيدلية حيث يشتغل كامل. ندخل السوق المسقوفة والذي شيّد تماما كسوق الحميدية في دمشق لكن بحجم اصغر، الى ان نصل الى محل "المزيّن

العصري" فيستقبلنا ابو عزيز استقبالا حاراً. ويجلس جدي على كرسي الحلاقة العريض واقعد انا امام المحل على كرسي صغير احتسي كأساً من الليموناضة المثلجة واتفرج على المارة. وعندما ينتهي الحلاق من مهمته نتجول في السوق قليلاً، واحيانا يقبل جدي دعوة احد معارفه التجّار فنجلس في مدخل دكانه ونتناول صحناً من بوظة الحليب المحليّة المطعّمة بالمستكة ثمّ يشعل بعدها سيجارة كاملة ويدخنها بلذة ونشوة.

## ٣

انتقلت عائلة جدي الى بيت جديد سنة ١٩٣٥ او ١٩٣٦ وقررت جدتي "تحديث" البيت باستبدال طاقم السفرة بطاقم جديد وشراء راديو لاسلكي.

اما طاقم السفرة فقد استغرق صنعه عدّة اسابيع في اكبر محلات النجارة في عكا، وكان مؤلفاً من مائدة واسعة يجلس اليها اثنا عشر شخصاً، ويمكن تمديدها باضافة عارضة خشبية في منتصفها وزيادة عدد المقاعد الى ثمانية عشر. وكانت مصنوعة، مثل المائدة، من الخشب الثقيل المصقول ويتطلب زحزحة كل منها جهداً عظيماً. وبالاضافة الى المائدة والمقاعد الثمانية عشر، كان هناك خزانة الصحون والفضيات التي كانت بطول المائدة وعلوها وتزيّنها مرآة ضخمة.

اما الراديو اللاسلكي فقد عارض جدي شراءه باديء الامر لكنه عاد عن معارضته امام اصرار جدتي. كان ينظر الى الراديو في تلك الايام على انه قطعة موبيليا، فوضعته جدتي في قاعة طاقم

السفرة تكملة لمشروع التحديث، وليس في مكانه الطبيعي في غرفة الجلوس حيث كانت العائلة تمضي معظم اوقاتها. وكنت الوحيد الذي استمع اليه خارج نظام الاستماع الذي وضعته جدتي واقتصر على سماع صلاة الجمعة وتلاوة القرآن الكريم كل صباح ومساء. وبعد وقوع الحرب العالمية الثانية وسّعت جدتي برنامجها واصبحت تستمع الى نشرات الاخبار لتتابع هزيمة الانكليز وتراجعهم في شمالي افريقيا. وكانت محطة الاذاعة المفضلة لديها محطة باري الايطالية التي كانت تذيع يومياً نشرتين بالعربية. وكانت تدعو الى نصرة ايطاليا والمانيا لا حبا بهاتين الدولتين "الكافرتين" او بنظامهما الفاشي او النازي، فهي لم تكن تعرف ما هي الفاشية او النازية، بل لان المحور كان عدو الانكليز: "الانكليز الخونة الذين اعطوا فلسطين لليهود"

وإبّان معركة العلمين كلما سمعت خبراً جديداً عن هزائم الانكليز، هرعت الى غرفة الجلوس وأعلنت بصوت متهدّج: "سيفتك الله بالظالمين. جاء يوم النصر واليوم المبين." ثمّ تعلّق على سير المعارك العسكرية، متنبئة بنهاية الحرب خلال ايام او اسابيع.

ذات مرة تنحنح جدي وهي تنقل اليه آخر الاخبار معلنا اعتراضه، فانتبهت اليه وقالت: "يعني مش عاجبك؟ بدك الانكليز ينتصروا؟"

"لا. بس سؤالي الطليان والالمان افضل من الانكليز؟"

"على الاقل نتخلص من الانكليز الكلاب. عشرين سنة. قتّلونا. خربوا بيوتنا. اعطوا اراضينا لليهود. ماذا تريد اكثر من ذلك؟"

بعد معركة العلمين وتراجع الالمان والطليان من مصر وليبيا

توقفت جدتي عن الاستماع الى اذاعة باري ولم تعد تتحدث عن الحرب الا نادراً.

## ٤

اكثر ما كان يقلق جدتي ويثير غضبها، موقف جدي المتسامح من الدين. كان واضحاً انه لم يكن يزعج نفسه بالموضوع اطلاقاً، على عكس جدتي التي كانت مأخوذة به لذلك دائما ما حاولت اثارة اهتمامه بالتحدث في موضوعات دينية معقدة مثل التي كانت تثيرها ايام "الاستقبال" امام السيدات اللواتي كنّ يزرنها كل يوم خميس ويجلسن يستمعن اليها بصمت كئيب. وكان جدي يجابه محاولاتها هذه بضجر واضح، اذ يرفض ابداء اي رأي في ما كانت تثيره من اشكاليات دينية وتثقيفية ويحاول تغيير الموضوع بشتى الوسائل، ما كان يزيد من غضبها، فتوجِّه اليه الاتهام المعهود بأنه السبب في تخلف حفيده عن اللحاق بأصول الدين.

"شوف شو عملت بالصبي، رح يطلع مثلك بلا دين، استغفر الله."

ذات يوم سمعت جدتي في نشرة الاخبار ان "شعرة النبي"، وهي شعرة من ذقنه وضعت في صندوق صغير مكسو بالحرير، ستصل بمناسبة العيد الكبير الى جامع اللبابيدي المحاذي لبيت جدي وستقام الصلاة عليها صباح العيد. كانت تتحدث الى خالتي سعادت، فلما سمعت بالخبر أمسكت عن الكلام وتجمدت مكانها، ثم تمتمت بخشوع وهي تمسح وجهها بيديها: "اللهم لبّيك." ثم التفتت الى جدي الذي كان جالساً يدخن نصف سيجارة بهدوء

وقالت: "سمعت، سمعت؟ مرة بالعمر تأتي بركة مثل هذه البركة."

وسألت جدتي: "وكيف تعرفين ان هذه فعلاً شعرة النبي؟"

فقاطعتني بغضب: "شو هالحكي. هذه شعرة من ذقنه الكريمة. وبس تذكر اسم رسول الله، قول صلى الله عليه وسلم."

ثم التفتت الى جدي قائلة: "هيك بيعجبك. هالصبي رح يصير كافر."

ثم اعلنت بلهجة صارمة انه يتوجب على جدي ان يذهب الى صلاة العيد وان يأخذني معه.

حاول جدي ايجاد عذر لعدم الذهاب بقوله انه لن يكون في الجامع الصغير موطىء قدم وانه ليس من الحكمة اخذ الصبي الى الصلاة في حالة كهذه. لكن جدتي تظاهرت بعدم السماع واكتفت بالصمت وبتصويب النظرات النافذة اليه، ما اقنعه ان مجابهة جماهير المصلّين ساعة من الزمن أهون من تحمل صمتها الرهيب ونظراتها الجارحة.

وكما توقّع جدي، كان الجامع يطفح بالمصلّين في داخله وخارجه، فأخذنا نشقّ طريقنا بين الواقفين والجالسين، فرآنا الإمام وقادنا الى الداخل، واجلسنا في الصف الاول امام المحراب. وبعد انتهاء الصلاة نهض الامام ليلقي خطبته، فلما شارف على نهايتها التفت اليّ جدي وقال بصوت منخفض: "عندما ينتهي قم واتبعني بسرعة."

كانت جدتي بانتظارنا وفي يدها منقل البخور. اخذت تقرأ علينا الفاتحة و"قل هو الله احد" وعلى وجهها معالم الرضى. كنا، كما تريدنا ان نكون، رجلين، بل ولدين، مطيعين، نسمع كلمتها ونمتثل.

## ٥

في تلك الفترة كان يتردد على بيت جدي ضيوف من اماكن مختلفة، من القدس ويافا وطرابلس وبيروت وصيدا، معظمهم من الاقارب، وبعضهم من اصدقاء العائلة. لقد نسيتهم جميعاً ما عدا اثنين، "مرت الباشا" و "داهش بك".

كانت مرت الباشا ارملة احد كبار رجال العهد العثماني وصاحبة املاك شاسعة في الجليل والسهول المحيطة بعكا. كانت آنذاك في الخمسينات من العمر، وعلى جانب كبير من الجمال، تلفت النظر بشكلها واناقتها واسلوب كلامها. وغالبا ما تأتي لزيارة بيت جدي في اغرب الاوقات، في الصباح الباكر احياناً، او في اوقات الغداء، او في ساعة متأخرة من الليل. وكانت تتكلم بالتركية مع جدتي وبالعربية المكسّرة او الفرنسية مع امي وخالاتي. واذكر كلماتها كلما شاهدتني: "شو هالولد الحلو، رح يطلع شوك غوزال"، وتقرصني في خدي بشدة. لكنها بعد ذلك كانت تصافحني بدل ان تطلب مني، كما كن يفعلن صديقات امي وخالاتي، ان احضر اليهن ليتمكّن من ضمي اليهن وتقبيلي قبلات رطبة مدوية، الامر الذي زاد من افتتاني بها.

وحين تأتي مرت الباشا لزيارتنا، تدب الحياة في البيت، وتسرع امي وخالاتي لاستقبالها. كن يجلسن ساعات في الصالون يتحدثن ويضحكن ويشربن القهوة ويدخنّ السيجارة تلو السيجارة. وكانت جدتي تدخل عليهن بوقار معتمد وتجلس معهن قليلا، صامتة لا تتفوه بكلمة، ثم تنسحب اذا لم يثر حضورها اهتمام مرت الباشا التي كانت تستمر في حديثها دون إعارتها اي انتباه خاص. كان اكره الاشياء على جدتي ان تكون مستمعة فقط. فقد كانت دائماً ترغب

ان تكون هي المتكلمة ومحط الاهتمام. حاولت تغيير تكتيكها مع مرت الباشا بالتدخل في الحديث، لكن مرت الباشا كانت دائماً تقاطعها بعفوية وتستمر في الكلام. لكن احياناً اخرى كانت مرت الباشا توجه حديثها اليها كأنها الشخص الوحيد الذي يهمها التحدث اليه، مما كان يسر جدتي الى اقصى حد. فكانت في تلك الحالات تبقى في مكانها تضحك وتستمع وتتحدث لساعات طوال.

كانت جدتي في حضور مرت الباشا حذرة في كلامها، فتتجنّب الخوض في المواضيع الثلاثة الحساسة، الدين والسياسة والصحة، التي كانت تتحدّث فيها ايام "الاستقبال" وتحاضر فيها بحرية تامة. لكن حدث مرة في احدى الجلسات وبحضور مرت الباشا ان تطرّقت جدّتي الى موضوع ديني نسيت ان لمرت الباشا موقفا واضحاً فيه.

كنت جالساً في اقصى الغرفة اقرأ "مغامرات روكامبول" بانتظار عودة كامل من عمله في الصيدلية، فسمعت جدتي تقول: "المسلمون فقط يذهبون الى الجنة. اما المسيحيون لانهم كفّار لا مهرب لهم من النار حتى ولو كان بينهم ناس طيبين." ورأيت مرت الباشا ترفع رأسها بدهشة وتقول بعجب وتلفظ الحاء هاء: "يعني جارتك ام هبيب وزوجها ابو هبيب وابنها هبيب سيذهبون الى النار لانهم مسيهية؟"

ادركت جدتي خطأها.

كان المجتمع الراقي في عكا يدرك ان مرت الباشا سيدة "مودرن" متحررة ليس فقط في اسلوب معيشتها وتصرفها بل ايضاً في آرائها الجريئة وبخاصة فيما يتعلق بالدين والحرية الاجتماعية. لذلك كان كل من يعرفها يتحاشى الدخول معها في مثل الموضوع الذي اثارته جدتي.

التفتت مرت الباشا الى خالاتي وامي بهدوء، وقالت دون

غضب: " C'est incroyable! ".

وغيّرت امي الموضوع، وسار الحديث في اتجاه آخر.

كان وقع هذه الحادثة على جدتي عميقاً، إذ كانت تتمتع بمكانة عالية في عالمها الخارجي. فلا يناقض كلمتها احد، فتشعر ان كل معتقداتها وكل ما تتفوّه به هو الصواب عينه. بقيت اياما صامتة على غير عادتها، كأن الشك قد دخل الى نفسها واصبحت تدرك بأنها ربما لا تملك الحقيقة بكاملها. لكن فترة الشك هذه لم تدم طويلا. فسرعان ما استرجعت ثقتها بنفسها وعادت الى اسلوبها القديم، واخذت تنتهز الفرص لمجابهة مرت الباشا في موضوع آخر تحرز فيه نصراً. غير ان محاولاتها لاستدراج مرت الباشا للدخول في حوار، باءت كلها بالفشل. فقد استمرت مرت الباشا تتجاهل جدتي في الجلسات التي كانت تعقدها عند زياراتها لنا مع امي وخالاتي، لا عن غضب او ضغينة، اذ انها نسيت الحادثة تماماً، بل عن عدم اكتراث بالمواضيع التي كان يهم جدتي التحدث بها.

في بادىء الامر استعملت جدتي تكتيك الصمت الكلي الذي كانت تعتمده في جلسات الاستقبال متى ارادت اعلان عدم رضاها عما تكون قد قالته احدى السيدات. فكانت كلما اتت مرت الباشا لزيارتنا بمرحها المعتاد، حيّتها جدتي بجفاء. غير ان مرت الباشا كانت تحييها بحرارتها المعتادة دون اعارة برودتها المقصودة اي اهتمام، ما كان يزيد من سخط جدتي ويزيد من صمتها. ومع مرور الايام بدا واضحاً ان الحرب النفسية التي شنّتها جدتي ضد مرت الباشا فشلت، فأخذت بالتراجع عنها تدريجياً، الى ان حدث يوما ان التفتت اليها مرت الباشا بتلقائيتها الصريحة وسألتها رأيها في موضوع لا دخل له بالدين او السياسة او الصحة، واجابتها جدتي جواباً حاز اعجاب مرت الباشا، ما ادّى الى عودة المياه الى مجاريها لفترة وجيزة.

## ٦

كان يتردد أيضاً على بيت جدي آنذاك شاب اسمه "داهش بك" اشتهر في الاوساط الاجتماعية بقدرته على التنويم المغنطيسي والتنبؤ بالمستقبل. لم التق به الا بعد مدة طويلة من تعرفه على بيت جدي، ذلك انه نادراً ما اتى لزيارتنا خلال الصيف، اي عندما كنت امضي عطلتي في عكا. لذلك سررت عندما سمعت ذات يوم جدتي تنادي بصوت متهدّج: "داهش بك قادم، افتحوا الباب."

كان آنذاك في اواخر العشرينات من عمره، اسود الشعر، نحيل القامة. اذكر بخاصة عينيه النافذتين وجو الصمت والانقباض الذي التف حوله، على النقيض من جو المرح والصخب الذي تميزت به شخصية مرت الباشا.

صوّب الي نظرة حادة دون ان يحييني او يبتسم.

قالت جدتي: "هذا هشام ابن فطمة. رح يروح على المدرسة الداخلية في بيروت."

مد يده مصافحاً وكانت باردة كالثلج.

رأيته بعد ذلك في عكا مرة واحدة بشكل عابر ولم اجتمع به ثانية الا بعد مرور ما يقارب الاربعين سنة في بيروت.

في تلك الزيارة التي تعرفت فيها اليه سلّم داهش بك جدتي كتاباً كان قد انتهى من تأليفه عنوانه "ضجعة الموت او بين احضان الابدية" وعليه تقديم: "الى عارف بك وعائلته الكريمة". تصفّحته جدتي ووضعته على الرفّ الذي كانت تضع عليه خالتي الصغرى كتبها المدرسية. بعد ذلك لا اظن ان احداً سواي لمس الكتاب.

كان مجلداً تجليداً مُتقناً ومطبوعاً على ورق فخم لماع، توّجت صفحته الاولى صورة المؤلف وتلاه اهداء الكتاب بخط رقعي اذكر

منه هذه الكلمات: "الى الموت والحياة الابدية". أمّا نصّ الكتاب فقد كان مجموعة قصائد كتبت ايضاً بالخط الرقعي ضمن اطار اسود. والى جانب كل قصيدة طبعت رسوم بعضها على صفحة كاملة وبعضها الآخر على نصف صفحة، ومعظمها "ايروتيكي" في موضوعها واخراجها الفني. قرأت بعض القصائد لكن دون ان استطيع فهمها. بدت معقدة الى درجة الغموض الكامل. لكن الصور والرسوم، التي كان اكثرها مستمداً من اعمال فناني عصر النهضة، سحرتني. قلبت الصفحات الملساء الناعمة، وتأملت طويلاً في رسوم اجساد النساء العاريات، فأحسست لاول مرة بذلك الشعور المبهم ازاء الموت واللذة. ما زلت اذكر لوحتين، لا كما شاهدتهما بعد ذلك مراراً في اصلهما الملوّن، بل كما رأيتهما لاول مرة في كتاب داهش بك: رسم اسود على بياض. كانت الاولى لفينوس بريشة بوتتشللي وهي تصعد من اليمّ عارية لا يخفي جسدها سوى شعرها الطويل الذي انحدر فوق كتفيها وثديها الايسر فبقي ثديها الايمن عارياً الا من بعض رذاذ. بدت لي فينوس في تقاطيع وجهها الدقيقة ونظرتها البريئة وجسدها النحيل تجسيداً لطهارة الانثى وبراءتها. اما اللوحة الاخرى فكانت لرسام لا اعرف هويته. وهي لوحة مشهورة تسمى "ليدا والبطة"، التي تظهر فيها ليدا المكتنزة الجسد وهي تستلقي عارية فوق شاطىء بحيرة هادئة تحيط بها الاشجار وقد حط بين ساقيها طائر ابيض يسحب عنقه الطويل ليتكيء برأسه بين ثدييها. جذبتني هذه اللوحة في الاتجاه المعاكس، ففي حين بعثت فينوس بوتتشللي في نفسي مشاعر الطمأنينة والارتياح، اثارت فيّ صورة ليدا شعوراً قوياً من الرغبة والقلق.

اردتُ التأكد من أني رأيت هاتين اللوحتين في كتاب داهش بك فعلاً واني لم اتخيلهما. فقضيتُ أشهراً في تقصيّ الكتاب في

المكتبات الخاصة والعامة فلم أجده، الى ان وقعتُ على نسخة منه قبل ان ادفع مخطوطتي الى المطبعة في مكتبة صديقي الدكتور سمير الصليبي في بيروت. فتحت الكتاب بأيدٍ مرتجفة. آخر مرة نظرت اليه كنت في العاشرة. طالعتني صورة ليدا تماماً كما تذكرتها، الا انها لم تكن مضطجعة فوق "شاطيء بحيرة تحيط بها الاشجار"، بل تمددتٍ بين ظلال سوداء احاطت بها من كل جهة فزادت من بياض جسدها ومن عُريها. اما فينوس فلم تكن عارية اطلاقاً، فالصورة التي جابهتني الآن كانت صورة صغيرة اقتصرت على وجهها الجميل البريء وشعرها الاسود الطويل تدفعه الريح الى الجانب الايسر من وجهها. لماذا تصورتها عارية؟ ولماذا وصفتها بالبراءة ووصفت ليدا على انها نقيضها؟ هل لأن جسدها لم يظهر في الصورة بينما بدت ليدا عارية تماما؟

تذكرت كتاب "ضجعة الموت" وهاتين اللوحتين عندما التقيت بداهش بك بعد مرور سنوات طويلة. كان ذلك في اوائل السبعينات في احدى زياراتي الصيفية الى بيروت. سألت امي يوم وصولي ونحن نحتسي القهوة عما حل بداهش بك.

حتى تلك اللحظة وطوال تلك السنوات لم يخطر اسم داهش بك على بالي لمرة واحدة. نَظَرتْ الي باستغراب. قالت انها سمعت انه يقيم في بيروت منذ ١٩٤٨.

في اليوم التالي وبحدود الساعة الثالثة بعد الظهر، كنت مثل معظم سكان بيروت في ذلك الوقت من اليوم، مستلقياً في السرير اطالع الصحف والمجلات واحاول ان اغفو قليلاً، حين رنّ جرس الباب الخارجي، وسمعت الخادمة تفتح الباب ثم تأتي الى الغرفة المجاورة وتقول لوالدتي: "السيد داهش بك يسأل عن السيد هشام."

قلت في نفسي، لا بد ان والدتي قد ارسلت اليه خبراً تعلمه بأني موجود في بيروت واني سألت عنه، فأتى لزيارتنا.

كان جالساً في زاوية معتمة من غرفة الاستقبال الصغيرة. ورغم حرارة الجو فقد خُيِّلَ اليّ اني شعرت بلفحة من الهواء البارد تهب في وجهي لدى دخولي الغرفة. وقف مسلّماً بصمت وشعرت بالانقباض ذاته الذي شعرت به عند لقائنا الاول في عكا منذ سنين طويلة. ما ان جلس حتى رأيت انه قد تغيّر كثيراً. كان أثقل وزناً، وفي تقاطيع وجهه علامات الكبر. إلا أن عينيه النافذتين لم تتغيرا.

"اتذكرني؟"

"بالطبع اتذكرك."

وعندما جاءت والدتي، تحدثنا قليلاً، ثم غادر على ان نلتقي ثانية.

سألت امي كيف تمكنت من الاتصال بداهش بك.

"انا لم اتصل به."

"اذن ما الذي جعله يزورنا؟"

"لست ادري."

اجتمعت في تلك الصيفية بداهش بك مرتين.او ثلاث مرات. وكان اجتماعنا في المرة الاخيرة قبل وفاته بمدة قصيرة، في احد مقاهي الروشة في احدى فترات الهدوء الاولى بعد انفجار الحرب الاهلية. جلسنا في مقهى "دبيبو" وكان خالياً من الروّاد. طلبنا فنجاني قهوة. لكنه لم يمسّ فنجانه. سألته اذا كان يذكر كتابه "ضجعةُ الموت او بين احضان الابدية". ابتسم وسألني كيف اطّلعت على الكتاب، فأخبرته. قال بصوت خافت: "حماقات شباب."

"لكنه كتاب فذ. كان له تأثير غريب علي."

وبعد صمت قصير قال: "الناس بتحب الروحانيات."

"كذلك الصور والرسوم اللاروحانية!"

"الناس بتحب الروحانيات خصوصاً اذا كانت مرتبطة باللاروحانيات."

ثم ابتسم ابتسامة فاترة وقال: "لا تظلمني. ولا تظلم الناس. انا لم اكذب على احد. الناس تريد الهرب. الى الماضي. الى المستقبل. الى العالم الآخر. الناس تريد الاتصال بالأرواح للخروج من كابوس الحياة. الصوت الذي يسمعونه من عالم الموتى هو صوتهم، صوت الموت الصادر من اعماقهم."



شاطيء عكا كما يبدو في الصيف أمام بيت جدي. إلى اليمين المَفْجَر ثم مزار الشيخ عز الدين. «النيل» يبدأ حيث يجلس الصيادون. في الصورة إلى اليمين أدناه أنا في الثالثة أو الرابعة من العمر في حضن مربيتي جمال. عندما عثرت على هذه الصورة بين أوراق والدي عرفت سبب تولعي بـ T.E. Lawrence. ان وجه جمال هو وجه لورنس. في الصورة الثالثة انا وكامل وحسن، واكرم خلفنا. الصورتان التقطتا من موقعين على الشاطيء ذاته.







بركة الشيخ أسعد والسور وجبل الكرمل في الأفق البعيد. تبدو النفايات على الشاطيء والامتداد الذي بناه الاسرائيليون بعد احتلال المدينة.

صورة كارت بوستال التقطت في اوائل العشرينات لشاطيء خليج عكا. الميناء تبدو الى اليسار ووراءها برج الساعة.

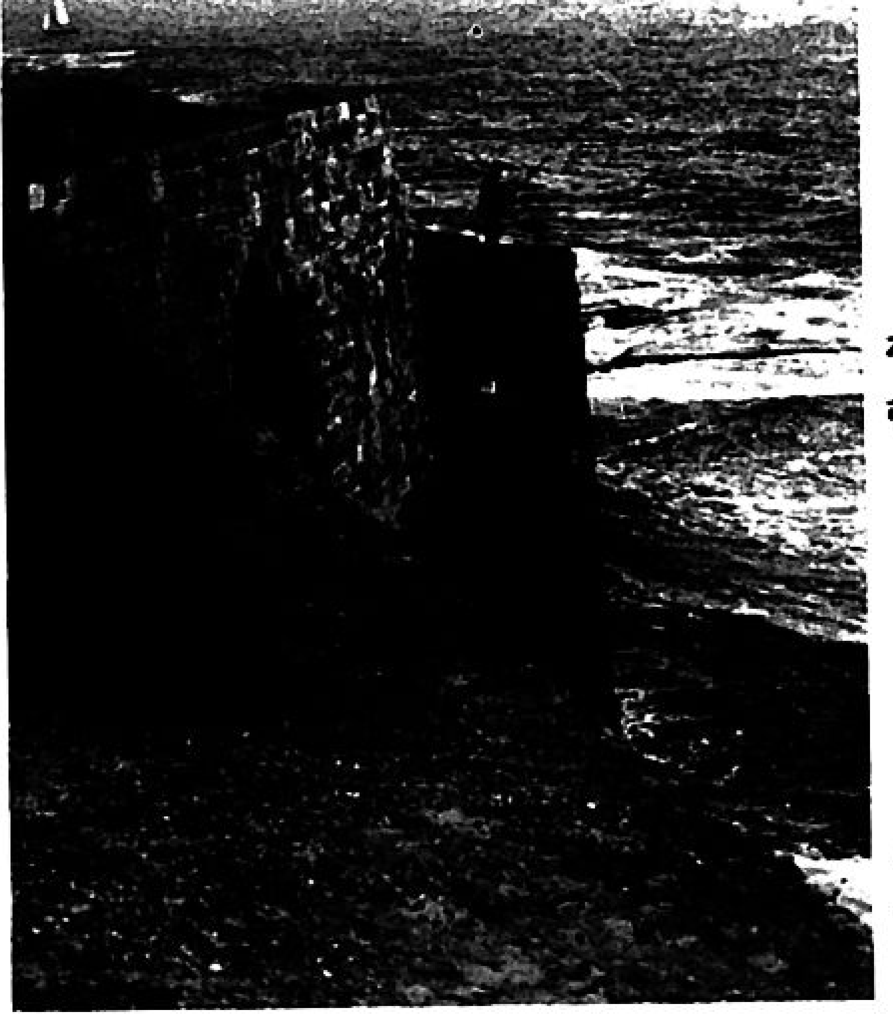
St JEAN d'ACRE
Acca







انا وكامل ووراءنا سجن عكا المركزي (القلعة).



أعلى يسار. صيدلية اللبابيدي وفي الخلف صورة جامع الجزار.

السور عند مدخل السجن. ويظهر مركب شراعي يتوجه إلى ميناء عكا.



منظر البحر قبل المغيب كما يبدو من شرفة بيت جدي.

أُلتقطت هذه الصورة لبيت جدي في البعينات وقد تغيرت واجهته وغطّي حجره الأبيض بالاسمنت. كانت غرفتي إلى اقصى اليمين.

عكا داخل السور. القلعة الى اليمين وجامع الجزار الى اليسار.





جدي في لباسه الرسمي.

خالتي نظميّة وسعادت مع مربيتها السويسرية في استانبول حوالي سنة ١٩١٠.

جدي وجدتي ١٩٤٨.

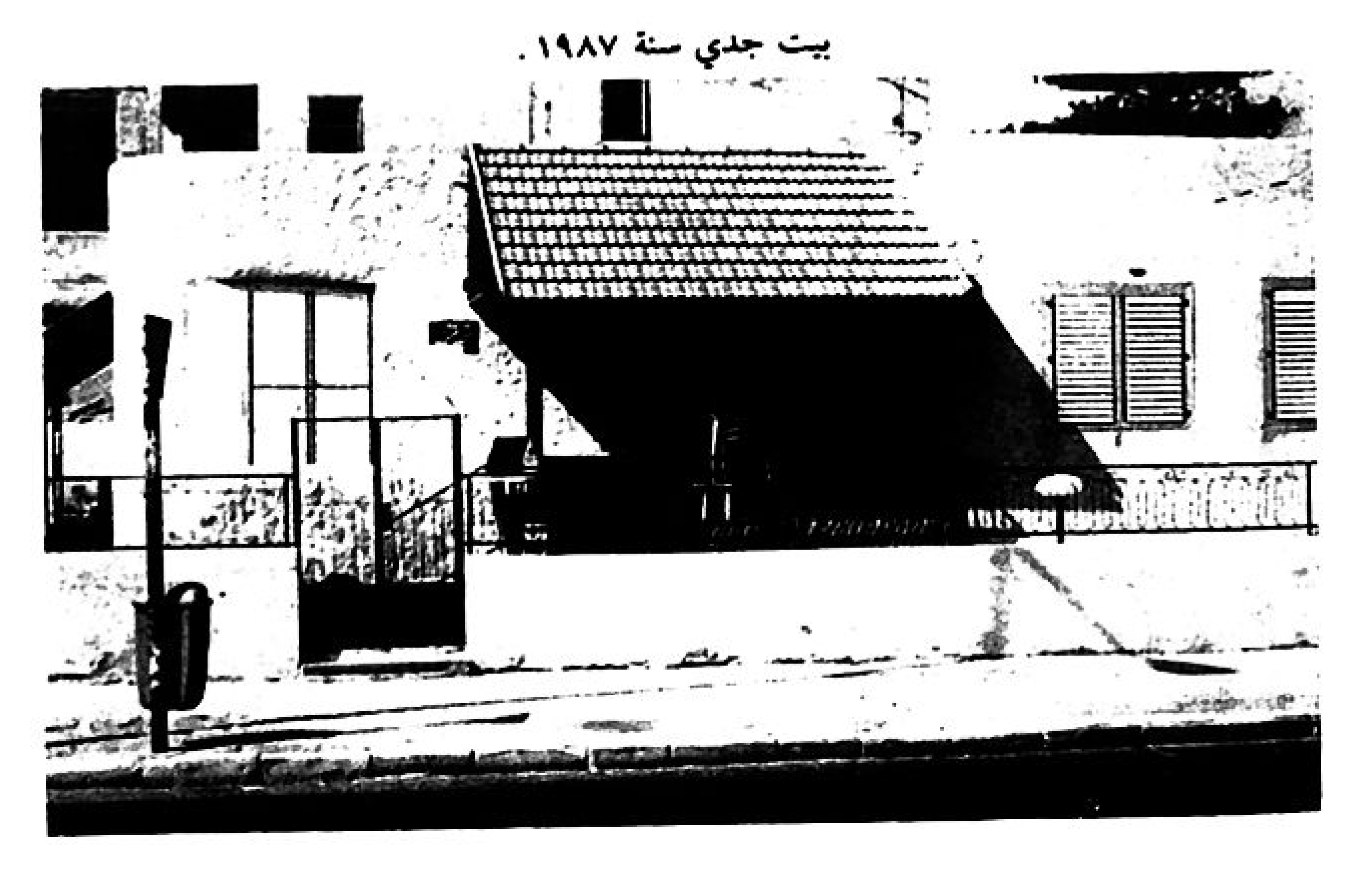


من اليمين وقوفاً: خالتي سعادت، جدتي، والدتي، خالتي نظميّة، والصبي أحمد خادم أخي خالد. الجالسون: جدي، أخي خالد، وعمتي نجية (شقيقة جدي)، التقطت هذه الصورة بعد سقوط عكا ولجوء العائلة إلى بيروت في ١٩٤٨. أخي خالد توفي في مطلع ١٩٤٩ بسبب عدم توفر الأدوية التي كان يتناولها، وجدي توفي بعده ببضعة أشهر. لم يتبق من عائلة عارف الصوفي إلا والدتي وخالتي نعمت.



خالتي الصغرى نعمت، نزحت سنة ١٩٤٨ من القدس مع زوجها وأولادها الثلاثة الى مصر.

بيت جدي سنة ١٩٨٧.





«ليدا والبطة» بريشة كوريجيو بالحجم ذاته تقريباً الذي تظهر فيه على الصفحة ١٢٦ من الكتاب وقد أحاطت بها الظلمة التي لم تظهر في الصــورة كما تذكرتها.

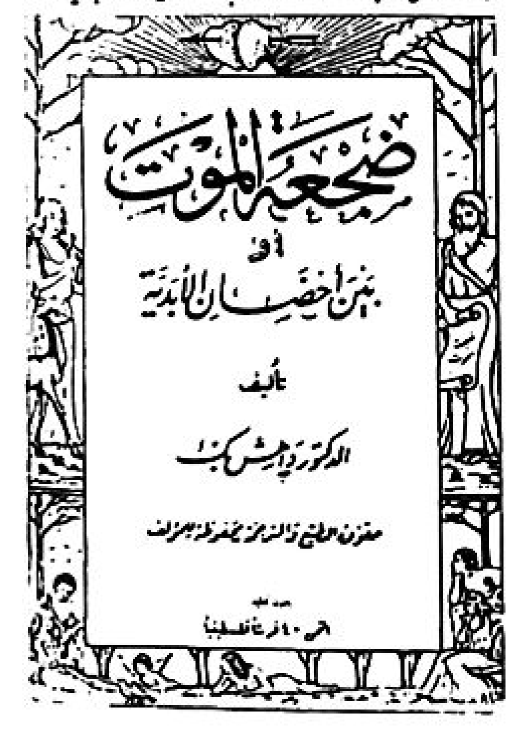



الغلاف الخارجي للكتاب غير المجلد وقد بدت فيه لوحة لامرأة عارية الصدر تمسك بطفل ميت.

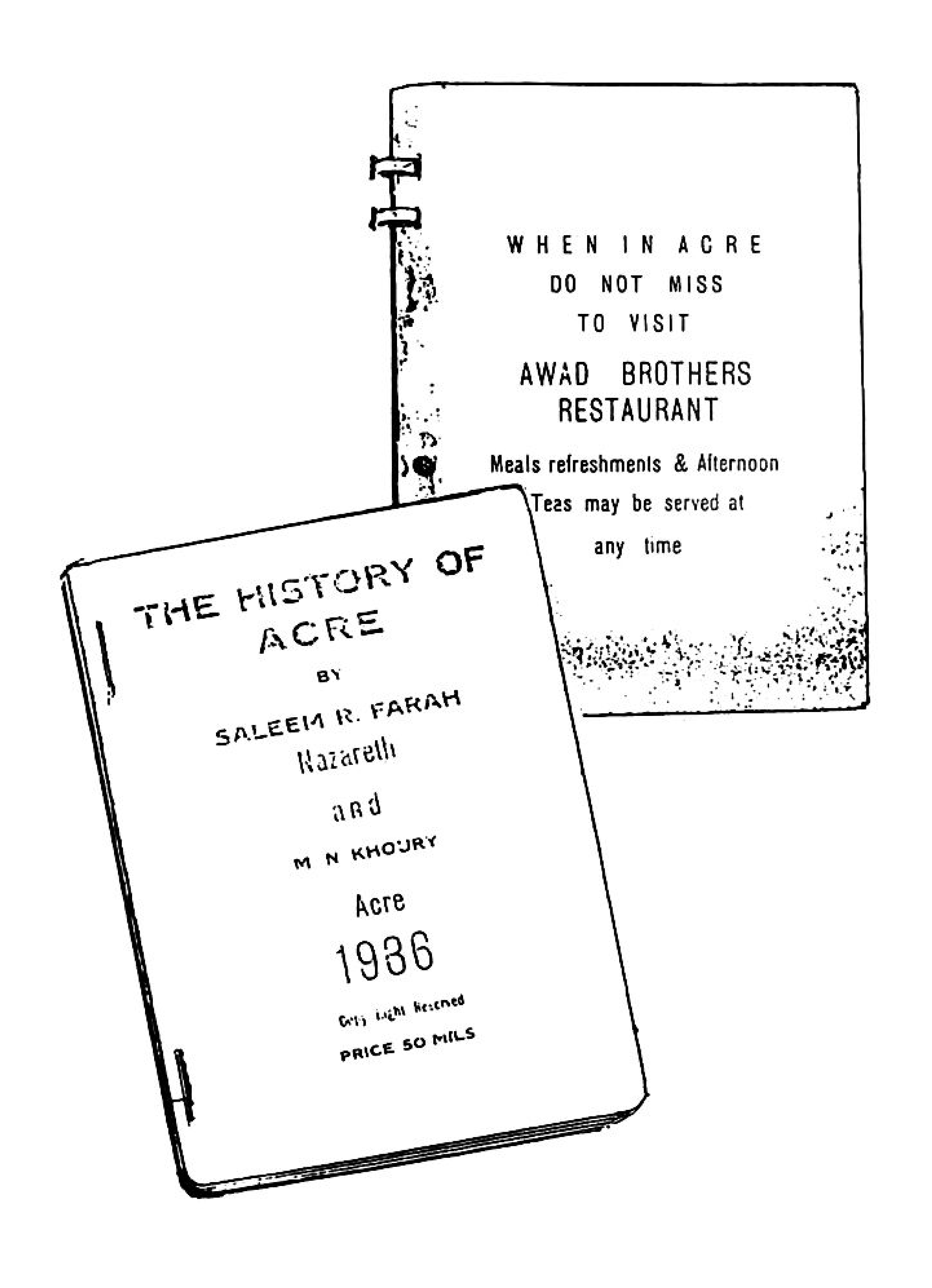
وجه فينوس بريشة بوتتشللي كما يظهر بالحجم ذاته من «ضجعة الموت» صفحة ٢٦ وقد أُقتطعتْ بقية اللوحة التي تظهر البحر والسماء والملائكة.



الصفحة الأولى من «ضجعة الموت» أو «بين احضان الابدية»
والسعر الباهظ للكتاب «دون تجليد.»



ضجعة الموت
أو
بين أحضان الأبدية
تأليف
الدكتور داهش بك




كراس عن عكا وضعه سليم فرح مع م. ن. خوري
باللغة الانكليزية سنة ١٩٣٦.


۳

# ١

كانت امي في السابعة عشرة من عمرها عندما تزوجت. انجبتني ثم وُلِدَ لها خالد أخي الأصغر مني ولمّا تكمل العشرين. انها في الصورة على الغلاف مع والدي في سوق الغرب في جبل لبنان في صيف ١٩٣٣ او ١٩٣٤ وهي آنذاك في سن ابنتي ناديا الآن.

وُلِدَ اخي خالد منحرفَ الصحة وبقيَ معظم حياته تحت رعاية الاطباء لا يخرج من البيت الا نادراً عندما يكون الطقس دافئاً وحين يشعر بقوّة كافية للخروج، فلم يعرف حياة الطفولة ولم يكن له اصدقاء يلعب معهم سواي. وعندما كبرت ودخلت المدرسة الداخلية في رام الله اصبح وحيداً لا رفيق له سوى امي وافراد العائلة الكبار، فتركزت اهتماماته على اشياء لا علاقة لها بالطفولة والعابها. فأصبح، مثلا، خبيرا في انواع الادوية التي كانت تعطى له. يحفظ اسماءها والعوارض التي تعالجها والكميات التي ينبغي تناولها منها. وصار له هوايات محددة، تتبدل بين فترة واخرى. كانت آخر هواياته، قبل

وفاته في سن التاسعة عشرة اقتناء الساعات على انواعها. استهوته ساعات اليد وساعات الجيب وساعات الحائط وخاصة الساعات "الكبرى"، مثل ساعة ساحة الحناطير في منتصف مدينة يافا وساعة الكنيسة الارثوذكسية القريبة من بيتنا الذي انتقلنا اليه في حي العجمي في الاربعينات. كان ينتظر سماع نشرة الاخبار ليقارن توقيتها بدقات ساعة الكنيسة وليضبط عليها ساعة يده وساعة الجدار في قاعة الجلوس وساعة كل فرد من افراد العائلة. وبسبب سوء صحته مُنع من تناول معظم المأكولات التي كنا نتناولها في البيت، ما جعله خبيراً بالطعام واشكاله وكيفية طبخ الاطباق المختلفة منه، وبخاصة تلك التي حُرم منها. وكان يُسمح له احياناً تناول بعض المأكولات الخفيفة التي كنا نتناولها، ومنها أكلته المفضلة، الفاصوليا الخضراء مع الأرز. وكان، ليضاعف تمتّعه بها، يفرّق الأرز عن الفاصوليا، ويبحث عن قطع اللحم الصغيرة ويضعها جانباً، ثم يأكل الأرز بتأنٍ ثم الفاصوليا واخيراً قطع اللحم الصغيرة. فيمضغها بلذّة وبطء.

كنت في السابعة وكان هو في السادسة عندما أصابتنا حُمّى التيفوئيد اثناء عطلة ذلك الصيف في سوق الغرب. كانت والدتي تحب سوق الغرب والجبال المحيطة بها، فكنّا نمضي معظم اشهر الصيف هناك رغم الحاحي على البقاء في عكّا، حيث نتوقّف لتمضية بضعة اسابيع عند بيت جدي ونحن في طريقنا الى لبنان. وفي سوق الغرب كنا نقيم في بيت كبير تملكه سيدة لبنانية اسمها الست لبيبة ويطلّ على بيروت والبحر وتحيط به حديقة كبيرة. والصورة التي اظهر فيها مع خالد ووالدتي التقطت في هذه الحديقة قبل اصابتنا بايام قليلة.

أصابنا المرض فجأة. وعندما فحصنا الطبيب الذي استدعاه

والدي من بيروت، تمّ وضعنا في غرفة منفردة. ومُنعنا عن تناول الطعام الا اللبن المروّب او اللبنة نلعقها دون خبز. وعندما خفّت وطأة المرض سَمَح لنا الطبيب بمغادرة الفراش والجلوس الى النافذة التي كانت تطل على الحديقة والطريق خلف البيت ومن ورائه الجبل العامر بأشجار الصنوبر والمطل على سوق الغرب. كنا نجلس انا وخالد عند النافذة طيلة ساعات النهار نتأمل الحديقة ونتفرّج على العابرين، فكان يحدّثني بما يخطر على باله، فيخترع قصصاً طويلة ويستمر بروايتها يوما بعد يوم دون ان يصل الى نهايتها، ويروي دقائق مغامرات رهيبة كان يقوم بها ابطال مجهولو الهويّة وغامضو المصير، ويقدّم وصفاً دقيقاً لما كان يرغبه في تلك اللحظة من مأكولات كان معظمها محرّماً عليه قبل مرضنا على أية حال.

كانت تلك الفترة نهاية مرحلة الطفولة بالنسبة لي. مع دخولي المدرسة افلتُّ من العالم العائلي الصغير ودخلت العالم الواسع. ولم ارجع الى البيت الا زائراً لقضاء بضعة ايام اثناء العطل المدرسية. وهكذا عندما غادرت البيت في نهاية الصيف بعد نقاهتنا من المرض انتهت علاقاتي الحميمة بأخي خالد، وتركته حتى آخر حياته أسير طفولة لم يكن بمقدوره الخروج منها.

بفارغ الصبر كان اخي ينتظر عودتي خلال العطل المدرسية، فيحسب الايام بالدقة ذاتها التي كان يضبط فيها ساعات نهاره. عند عودتي كنت اجلس معه لبضعة دقائق، ثم اسارع الى الاتصال باصدقائي لترتيب برنامج الايام التالية والذهاب الى سينما الحمراء. فكان كلما رآني في ذهابي وإيابي يحاول التحدّث في احد الموضوعات التي جمعتنا في السابق أو يعمد الى اثارة اهتمامي باحدى العابه الجديدة. فكنت اجلس اليه قليلاً ثم انصرف عنه بانانية ذلك السن لأعود مسرعاً الى اصحابي وملاهينا.

قبل مغادرتي الى الولايات المتحدة في اواخر سنة ١٩٤٧، وكان قد اصبح شاباً في الثامنة عشرة وانتقل مع والدتي الى بيت جدي في عكا بسبب توتّر الوضع في يافا وبدء القصف اليهودي لها من تل ابيب. سألته عمّا يريده هدية من اميركا عند عودتي. فقال: "ساعة جيب مع سنسال فضي."

لكن خالد توفي قبل وصولي ببضعة ايام. كانت عائلة جدي قد التجأت مع امي وخالد الى بيروت قبل سقوط عكا بايام وأقاموا جميعاً في بيت لسيدة تركية من اقارب جدتي كان يقع في رأس بيروت بالقرب من المنارة. قالت امي وهي تستقبلني عند الباب:

"بقي يسأل عن ساعة وصولك حتى آخر لحظة."

## ٢

كان بيت جدي الذي عرفته في مطلع حياتي مبنيّاً على الطراز القديم، استأجره جدي بعد تقاعده من وظيفته في البصرة. يطل على البحر مباشرة ويحيط بحديقته سورٌ عال. وكان جدي يملك قطعة أرض تطل ايضاً على البحر، لا تبعد كثيراً عن البيت الذي استأجره، اشتراها ليبني فوقها بيتاً على الشكل الذي تريده جدتي. ولم يتم تشييد البيت الا بعد مرور عدة سنوات. فدخل جدي المالي كان محدوداً، إذ كان جزء منه يأتيه من تقاعده وجزء ثان من ايراد بستان كان يملكه في طرابلس ومن مزرعة له تقع قرب قرية الذيب تدعى الموارس ضمّنها لفلاح وعائلته وشاركهم في محصولها. كان الفلاح، واسمه ابو علي، في الاربعينات من عمره لكن بدا شيخاً هرماً. كان يأتي كل اسبوع مع ابنه علي راكبين على حمارين محمّلين

بالخضار والفاكهة، فتستقبلهما جدتي بسرور عظيم وتقدم لهما الفطور ثم تستجوب أبا علي عن اسعار المحصولات والمبالغ التي حصل عليها من مبيع ذلك الاسبوع، ثم تأخذ ما يعطيها من نقود وتضعها في محفظة جلدية في خزانتها في غرفة النوم وتقفل عليها لايداعها في اليوم التالي في بنك الأمة. ومما وفّرته جدتي على مرّ السنين تمّ بناء البيت الجديد سنة ١٩٣٥ على أحدث طراز باشراف المهندس اللبناني اميل البستاني والذي اصبح رجل الاعمال الشهير فيما بعد.

كانت تقع "مدرسة" الست افلين بين بيت جدي القديم وبيته الجديد. وهي عبارة عن غرفة كبيرة خصصتها الست افلين لتدريس الاطفال ورعايتهم من سن الثالثة او الرابعة حتى التاسعة او العاشرة.

بدأت حياتي الدراسية في الرابعة من عمري حين التحقت بمدرسة الست افلين. اذكر ذلك اليوم بوضوح. استيقظت باكراً وتناولت الفطور الذي كانت تعدّه لي خالتي سعادت (فهي كانت تستيقظ دائماً قبل مطلع الفجر)، وجلست انتظر والدتي لتأخذني الى الست افلين. كنت اعرف الست افلين جيدا فكانت كثيرا ما تزورنا في البيت، وكنت اعرف المدرسة ايضاً اذ كنت اراقب الاطفال يلعبون امام بيت الست افلين في فترات الفرص العديدة التي كانت تسمح بها. فلم يكن التحاقي بالمدرسة من اختبارات مرحلة الطفولة الاليمة، بل امراً مفرحاً توقعته بشغف. امسكت بيد امي بشدة وعبرنا الشارع الذي يفصل بيت جدي عن المدرسة. كانت الست افلين تنتظرنا امام الباب. غمرني شعور قويّ عند دخولي الغرفة ورؤيتي عشرات من الوجوه الصغيرة تلتفت إليّ وتنظر مبتسمة. كان ذلك الشعور نفسه الذي انتابني عند دخولي اول صف درّسته بعد التحاقي استاذاً في جامعة جورجتاون في سنة ١٩٥٣ - احساس

بـالقوة والـرهبة في آن. اخـذتني الست افلين بيدي واجلستني الى جانبها، وبقيت امي واقفة عند الباب. لوّحت بيدها مودِّعة. نظرت اليها وكان قلبي يدق بشدة. لا اريدها ان تتركني، لكني في الوقت نفسه لا ارغب في مغادرة هذا العالم الجديد. كان ذلك اول فراق حقيقي بيننا. أدركت عندما اغلق الباب ان فراقنا هذه المرة يختلف عن اي فراق في السابق. انه بداية انفصال سيستمر العمر كله. لم اشعر بالغضب لانها تركتني، فقد احسست اني أيضاً تركتها.

## ٣

عند عودتنا الى يافا في مطلع الخريف، سجلتني امي في روضة الاطفال الانكليزية، في حي الملكان، حيث كـان يقطن الاجـانب الانكليز والالمان في يافا، وكانت تعرف بمدرسة المس باين التي كانت تديرها بمساعدة معلمتين بريطانيتين وفق احدث النظريات في تربية الاطفال.

هنا بدأت حياتي خارج عالم العائلة الـذي لم اعرف غـيره. فمـدرسة الست افلين كـانت امتداداً للمحيط العـائلي. لكن هنـا وجدت نفسي لاول مرة بعيداً عن امي وافراد عـائلتي في محيط لا عهد لي به. حولي اطفال كلهم في مثل عمري، نتحدث الى بعضنا بعضاً دون استيحاء او خجل، بعكس ما كنا نفعل مـع الكبار، فنكتشف عالماً جديداً سرعان ما يبتلعنا بالعابه وملذاته وندخله ركضاً وقفزاً احراراً فرحين. انها الحرية الاولى، نتذوقها لأمد قصير فـلا ننسى طعمها، ثم نمضي بقية العمر في التفتيش عنها.

تحدثنا معلمتنا الانكليزية بلهجة رزينة كأننا راشدين، لا تقبلنا

ولا "تدلّعنا"، بل تجلس الينا وتفسر لنا ما علينا ان نفعله، ثم بعد الدرس تتركنا لنلعب كيفما نشاء. ورغم عدم تمكني من اللغة الانكليزية (وكل ما تعلمته عند الست افلين لم يتعدّ قراءة بعض الجمل البسيطة وحفظ حروف الابجدية) فحين تحدثت الينا المعلمة بالانكليزية بصوتها الهادىء ولفظها الواضح شعرت اني افهم ما تقول. وهكذا تعلمت اللغة الانكليزية بشكل تلقائي، دون العذاب الذي رافق دراستي العربية الفصحى في ما بعد.

٤

كنت احياناً عنيفاً في منهجي النقدي الذي سلكته في كتاباتي حول النظام الابوي واثره في تطور شخصية الفرد في مجتمعنا العربي. وربما قسوت على الاب في تشخيصي له سلطة ورمزاً. لا اريد هنا ان اظلم الشخص الذي كان ابي. فهو في ذاكرتي اباً حنوناً، وله في قلبي مكانة محفوظة لا يغيرها الزمن. انا الآن مثله أب، رغم اني لم اختر ان اكون "اباً،" فنحن نُصنع آباء قبل ان يولد ابناؤنا بزمن طويل.

اذكر يوماً ماطراً وعاصفاً في مدرسة الفرندز للبنات في رام الله. كانت سنتي الاولى او الثانية هناك. الساعة تقارب الثانية بعد الظهر. ندرس الجغرافيا في صف مس لبّاط، ولا يزال امامنا ما يقرب الساعة قبل موعد الخروج. انظر الى المطر الدافق من خلال النافذة الكبيرة ويزداد غمي. لن نستطيع اللعب في الخارج بعدَ الصف وسنضطر للذهاب الى النزل مباشرة وقضاء ما تبقى من الوقت قبل العشاء في الاستماع الى مس حسّون تقرأ علينا قصة

اخرى. كان عدد الاولاد من يافا كبيراً (أذكر منهم وليد وعمر البيطار، ياسر وصفوح السعيد، جورج كرفيوتي، فرح تماري). كنا في مدرسة البنات حوالي عشرين طفلاً نقيم في نزل صغير استأجرته المدرسة بالقرب من الكنيسة البروتستانتية برعاية مس حسّون ومساعدتها مس عصفور ولا اذكر ان احداً من الاطفال علق على هذا الشبه القريب بين الاسمين، ربما لاننا ما زلنا قريبين الى عالم الطبيعة. وزّعت مس حسون اليافاويين على الغرف الاربع في النزل التي اتسع كل منها لخمسة اطفال، كي لا يشكلوا الاكثرية في اية غرفة واحدة. ووُضِعْتُ انا وجورج كرفيوتي في غرفة واحدة تطل مباشرة على الكنيسة الصغيرة. كان جورج من عائلة يونانية تقيم في شارع الملك فيصل بالقرب من بيت عمر ووليد البيّطار. وكان جورج يتكلم باللهجة اليافاوية مثلنا تماماً، ولم نشعر لحظة الا انه واحد منا. كان هو وفرح صديقين حميمين وانتقلا سوياً الى مدرسة الصبيان قبل انتقالي اليها بسنة واحدة.

كان يجمعنا، نحن اطفال يافا، حنين الى اهلنا وامهاتنا وذكرى حياتنا في بيوتنا وبلدنا. كنا نجلس في الايام الماطرة لنتحدث بأسى عن كل ما حُرمنا منه في هذا المنفى: طعام والدتنا، بحر مدينتنا وشوارعها، وسينما الحمراء. ونعدّ الايام لقدوم العطلة المدرسية ونرسم لها الخطط والبرامج. وكلما اقترب موعدها ازددنا مرحاً وحماساً. وكنا في يوم المغادرة نستيقظ باكراً ونغتسل بالماء البارد تحت أنظار مس حسّون ومس عصفور، ونهرع لتناول الفطور في القاعة المخصصة لنا في الطابق الارضي من بناية المدرسة الرئيسية، ثم نعود الى النزل ونأتي بحقائبنا وننتظر امام بوابة المدرسة الخلفية قدوم السيارات التي ستقلنا الى يافا. كنت في اكثر الاحيان ارافق عمر ووليد في سيارتها البويك السوداء، فيجلس وليد في المقعد الخلفي،

نلوّح الى مس حسّون ومس عصفور وننطلق الى يافا، ونحن لا نقدر على كبح جماح الفرح الذي يمتلكنا، فنأخذ في التعارك الوهمي في ما بيننا ويعلو ضحكنا وصياحنا ويحاول السائق انور تهدئتنا لكن دون جدوى. كانت عطلة الربيع عطلتنا المفضلة، تأتي بعد انتهاء الشتاء المعتم الكئيب، عندما تصبح السماء العاصفة زرقاء صافية والغيوم السوداء تلال من القطن الابيض وتمتليء الارض بالزهور الحمراء والصفراء والبيضاء وتعجّ التلال الجرداء المحيطة برام الله بألوان الربيع الفرحة، نمر بين هذه التلال في طريق اللطرون وهي خالية من السيارات، ونلحّ على انور السائق ان يزيد من سرعته، فيلبي طلبنا بحماس، وتنطلق السيارة بسرعة جنونية مثيرة خلفها عاصفة من الغبار.

كانت بداية العطلة عيد ونهايتها حداد. يوم العودة الى المدرسة اسمع صوت السائق انور بعد ان يقرع جرس الباب. احمل حقيبتين وانزل الدرج ببطء لا التفت الى الوراء حيث وقفت امي: "ما تنسى تلبس الجرسيه."

اجلس في السيارة الى جانب عمر بصمت. السائق انور يحاول التخفيف عنا ويحدثنا ضاحكاً، ولا نرد عليه.

وعندما نصل الى اللد يقول وليد: "بعد نص ساعة نكون في رام الله."

## ٥

يشتد هطول المطر ويتزايد قصف الرعد ولمعان البرق. مس لبّاط تنظر بقلق من خلال النافذة وتستمر بالكلام. يفتح الباب فجأة

وتدخل مس حنّوش رئيسة المدرسة، وتتهامس مع مس لبّاط. ارى مس لبّاط تنظر نحوي، ثم تشير اليّ بيدها. تأخذني مس حنّوش بيدي ونخرج والجميع ينظر الينا بفضول.

والدي تلفن من القدس وسيصل خلال ساعة ليأخذني معه الى يافا لقضاء عطلة آخر الاسبوع. لا اصدق اذني. اكاد اطير فرحاً.

"والآن ستأخذك مس حسّون للاستحمام."

ها هي مس حسّون بانتظاري في مكتب الرئيسة. أمسكت بيدي وركضنا تحت المطر الى النزل. وحال وصولنا بدأت مس حسّون باشعال نار الحمّام. حاولت ايجاد مخرج من الاستحمام.

"لكن تحمّمنا يوم السبت . ساستحم في البيت."

لم تعرني مس حسّون اي اهتمام. فتحت حنفية الماء ووضعت يدها تحت الماء لتتأكد من حرارتها. كانت تعرف كم كنا نكره الاستحمام. مساء كل سبت كان موعد الحمام الساخن. مس حسّون ومس عصفور يتحولان الى نساء من الامازون. يمسكان بنا الواحد تلو الاخر ونحن عراة كما خلقنا ربنا ويأخذان بتليفنا بالصابون من الرأس الى أخمص القدمين، وتساعدهما في ذلك امرأة ضخمة على جانب كبير من القوة اسمها ام نبيل تعمل في مدرسة البنات، وكان اختصاصها صب الماء المحرقة بحرارتها فوق رؤوسنا والامساك بنا حتى لا نفلت من قبضتها الفولاذية وتمنعنا من القفز فوق حاجز البانيو. كان الصراخ والعويل يملآن النزل طيلة فترة الاستحمام ولا ينتهيان الا مع خروج آخر صبي من الحمام. كانت مس حسّون تتفحصنا واحدا واحدا لدى خروجنا من الحمام حتى تتأكد من اننا مررنا من تحت يد ام نبيل، بعد ان اكتشفت ان هناك من يدخل الحمام بعد ان يبلل شعره فيخرج دون المرور تحت يدي ام نبيل.

"احنِ رأسك،" تقول مس حسّون.

يعقصني الماء كالعقرب في اعلى رقبتي ثم يمتد الى سلسلة ظهري. لكني هذه المرة لا اصيح ألماً. الفرح يغمرني. سأنام الليلة في فراش في بيتنا في يافا، وسأستيقظ على هدير البحر، سأنزل الى البلد مع والدي، وألعب مع سعيد طالب ابن الجيران.

أجفف جسمي بالمنشفة البيضاء الكبيرة وارتدي جرسيه من بين العشرات التي صنعتها لي والدتي في ساعات توقها اليّ منذ التحاقي بمدرسة الفرندز. وتنزل مع مس حسّون الى مكتب مس حنّوش لانتظار ابي. توقّف المطر وظهرت شمس الشتاء. اراها صغيرة في الافق من نافذة المكتب. لكن الريح الشمالية ما زالت تهب بشدة، فيما الاشجار تنتحب.

ارى السيارة. ينزل ابي منها ويتطلع حوله. مس حنّوش تناديني. اركض اليه واحيط رقبته بذراعي. تقول مس حنّوش ونحن نركب السيارة: "يوم الاثنين صباحاً. لا تتأخر".

كانت السيارة من نوع "بليموث" موديل ١٩٣٥. كنت، مثل بقية زملائي، خبيراً في انواع السيارات وخصائصها. جلست في المقعد الوثير الى جانب والدي وسارت بنا السيارة ببطء في الشارع المنحدر. خارج رام الله التلال جرداء والشمس تحجبها الغيوم الرمادية. فرح غامر يطغى عليّ. انظر الى ابي واشعر اني اسعد مخلوق في الوجود. في تلك اللحظة كان حبي له لا يضاهيه اي حب لانسان آخر.

## ٦

توفي ابي سنة ١٩٥٦ وكان لقائي الاخير به في عمان في شتاء

سنة ١٩٥٤. كان يقيم مع اخي نظام في بيت مبنيّ من الحجر الابيض بالقرب من الدوار الثاني. في المساء هبطت بي الطائرة الآتية من لندن في المطار القديم. لم اجد احدا بانتظاري في قاعة الاستقبال، فانتقلت في سيارة اجرة انطلقت بي في الشوارع المظلمة. كان البرد قاسياً بشكل لم اعهده حتى في عز الشتاء في اميركا. استقبلني اخي نظام بدهشة وحرارة، ثم علمت ان برقيتي التي ارسلتها قبل مغادرتي واشنطن لم تصله.

اخذني الى غرفة ابي، وكان جالساً امام المنقل يرتدي عباءة صوف وعلى رأسه قلنسوة تغطّي اذنيه. كم تغير شكله، يكاد لايستطيع القيام من مقعده لمعانقتي. في هذه الغرفة توفي امام المنقل. دهمته السكتة القلبية وحيداً. وجده اخي نظام مستلقياً الى الخلف. ظنّه نائماً عند دخوله الغرفة.

عانقني بعطف وسألني اذا كنت أشعر بالبرد ثم اجلسني الى جانبه.

لم يسألني عن اميركا او عن عملي في الجامعة او عن احوالي الخاصّة. لم يبق في حياته الا الحاضر الآني او الماضي السحيق، وكنت خارج كليهما.

عاملني بلطف ولياقة، كأنني ضيف جاء لزيارته. جلست معه واخي نظام نتحدث عن يافا وفلسطين. لم يُبدِ اي اهتمام بالوضع السياسي او التطورات المتعلقة بالقضية الفلسطينية. قال: "في الربيع سيدفأ الطقس."

واخذ يتحدث عن العودة الى يافا. ثم قال: "أتعرف ان عمّك شفيق بقي في البيت. كل شيء في البيت بقي كما تركناه."

كان لديه مجموعة من السجّاد العجمي اقتناها عبر السنين. عندما اكتست ارض البيت كلها بالسجّاد، راح يعلق السجاد على

الحيطان، مما اضفى على بيتنا جو مخزن للسجاد العجمي. لم يكن يدري ان شفيق قد أخرج من البيت وان اليهود قد وضعوا يدهم على البيت وما فيه.

"هل تتذكر عبير زهر البرتقال في الربيع؟"

كان يتذكر اريجه الساحر كان يسري في الشوارع ويدخل البيوت ويعبق فيها ليلاً/ونهارا لأسابيع، فتتغير نفسيّة سكّان المدينة، وهذا ما يسميه الفرنسيون "جوا دو فيفر": مجرد العيش يصبح لذة لا تُضاهى. هذا ما يتذكره الجيل الذي نزح عن يافا سنة ١٩٤٨، بعبيرها المسكر وسمائها الزرقاء وبحرها الصاخب. من هنا تعلّق اهل يافا بمتع الحياة، بحبهم للرياضة، وبخاصة السباحة وكرة القدم، وولعهم بالسينما والمسرح، ولذّتهم في الجلوس في النوادي والمقاهي المنتشرة في انحاء المدينة. كان مقهى ابو شاكوش في شارع جمال باشا بالقرب من بناية البريد مقهى والدي المفضّل. كان اخي نظام من اشهر لاعبي كرة القدم في فلسطين وبطل التنس لسنوات عديدة.

de
re

يشتد عصف الريح في الخارج. والدي يراوده النوم. يرافقه نظام الى سريره. آوي الى فراشي في الغرفة المجاورة واحس بالصقيع يلفني. انام نوماً متقطعاً حتى مطلع الفجر. توقظني الخادمة وفي يدها كوب من الشاي. ارتشفه واسناني تصطك من البرد.

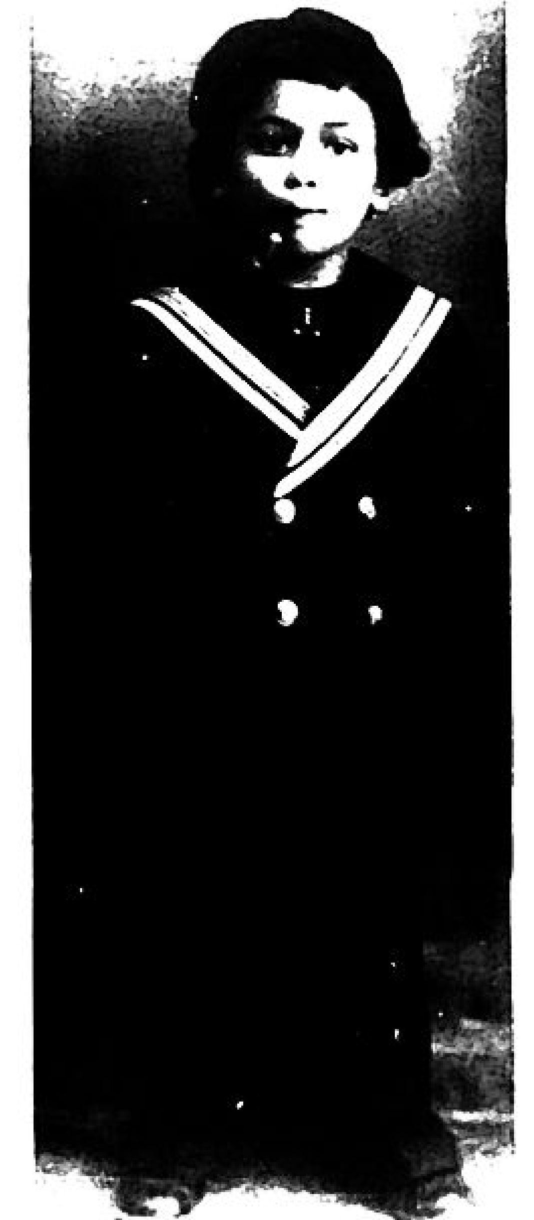
بكت عينا والدي لدى فراقنا. قلت له اني سأراه في يافا عند زيارتي القادمة. طبطب على خدي بحنو، كما كان يفعل عندما كنت طفلاً.

"باذن الله يا حبيبي."



صف الحضانة في مدرسة مس باين في يافا. انا اجلس الاول من اليمين واسماعيل دجاني يجلس الاخير الى اليسار.

في الرابعة او الخامسة من عمري في يافا.



انا وخالد مع والدتي في حديقة بيت الست لبيبة سنة ١٩٣٤ في سوق الغرب.







ولدت في عائلة جاهزة: شقيقاي نظام ونظيم أثناء دراستهما في الجامعة الأميركية في بيروت. شقيقتي الكبرى عطاف في لباس مدرسة سكوتز كوليج في صفد. والدتي ووالدي في بيتنا في المنشية سنة ١٩٣٤ وقد بدأ السجاد يتسلق جدران البيت. شقيقتي الصغرى عفاف تحضنني واخي خالد في سوق الغرب صيف ١٩٣٣.





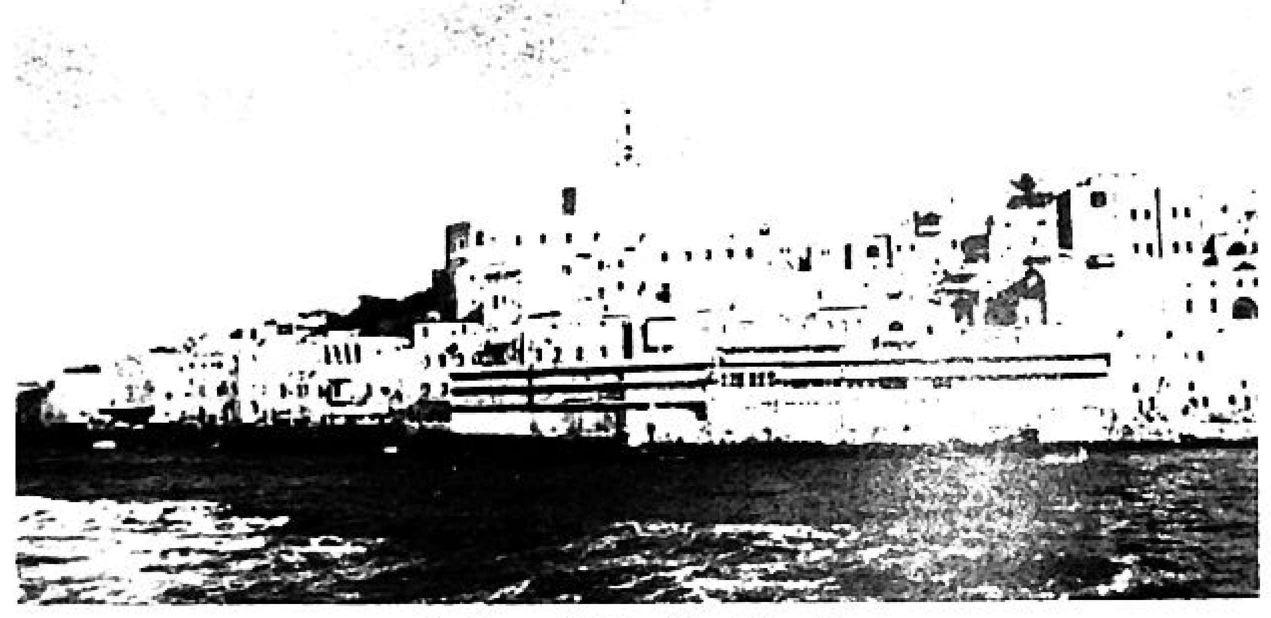
والدي يجلس الثالث من اليمين عندما كان حاكم صلح يافا مع اعضاء المحكمة الانكليز واليهود وخلفهم الموظفون.



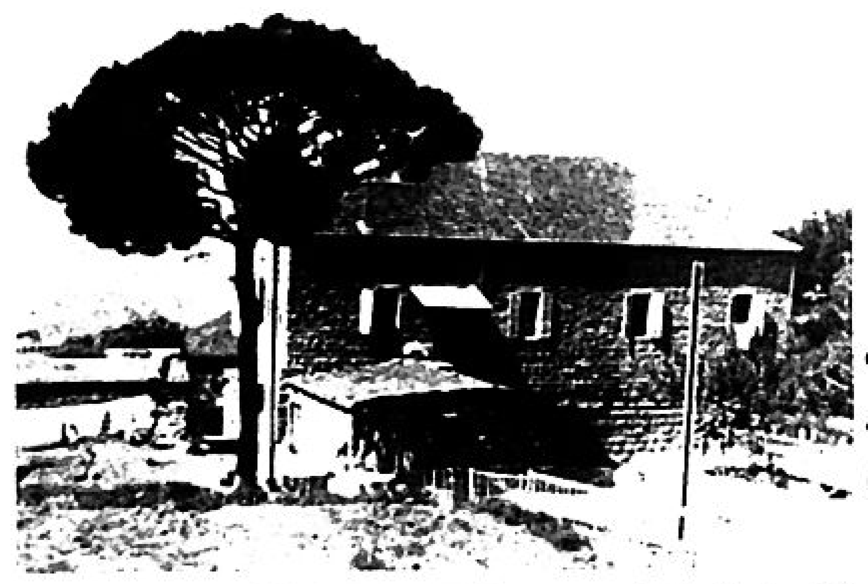
والدي يقف الى اليسار بثيابه الانقية في رحلة صيد بالقرب من يافا.



اقف امام والدتي ويبدو وراءنا شاغور حانانا. الى يمينها صديقتها الحميمة الست سارة (زوجة عمر البيطار) والى يسارها ام هاشم والدة الست سارة وخلفهما اختي عفاف.



ميناء يافا والبلد القديمة كما يبدوان اليوم.



بيت الست لبيبة في سوق الغرب حيث كنا نمضي فصل الصيف وقد وقف اخي نظام في الامام بلباس التنس.



بيتنا في حي العجمي. التقط هذه الصورة صديقي وجارنا في يافا زاهي خوري في صيف ١٩٩١.



منظر عام لرام الله في الستينات.



مدرسة الفرندز للبنات، البناية الجديدة. في الغرفة الكبيرة ذات الشباك الواسع حيث تعلمت مبادىء اللغة العربية من كتاب خليل السكاكيني الذي كنا ندعوه «راس روس.»

مكتب مديرة المدرسة ما زال في الطابق الأول. التقطت هذه الصورة خصيصاً لهذا الكتاب في مطلع سنة ١٩٩٣. البناية والأشجار تبدوان كما اذكرهما تماماً.

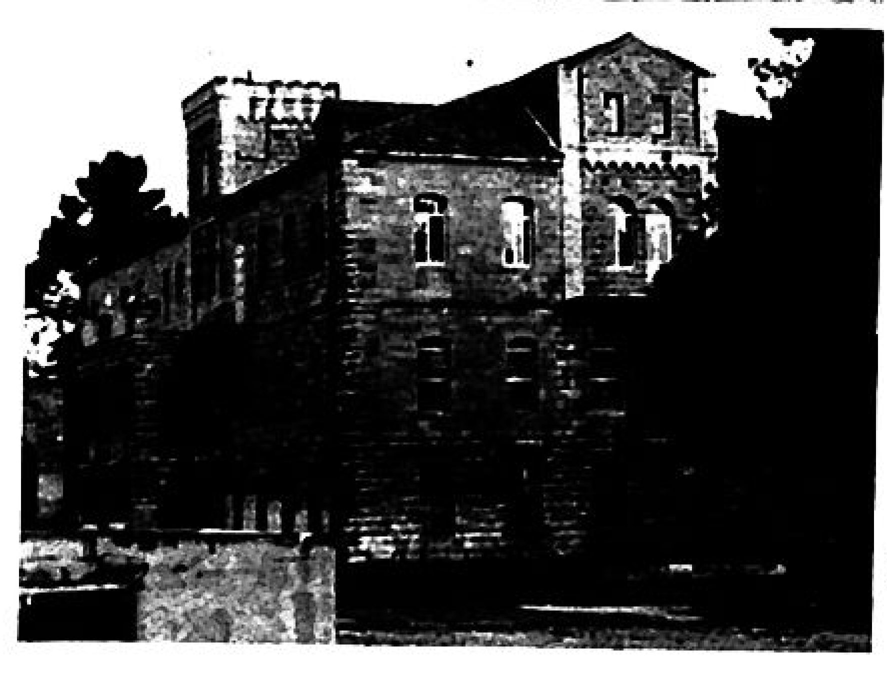




التقطتْ هذه الصورة لملعب كرة القدم سنة ١٩٣٨. في الخلف الى اليمين تبدو البناية التي كان يقيم فيها الطلبة الداخليون ووراءها البناية الرئيسية.

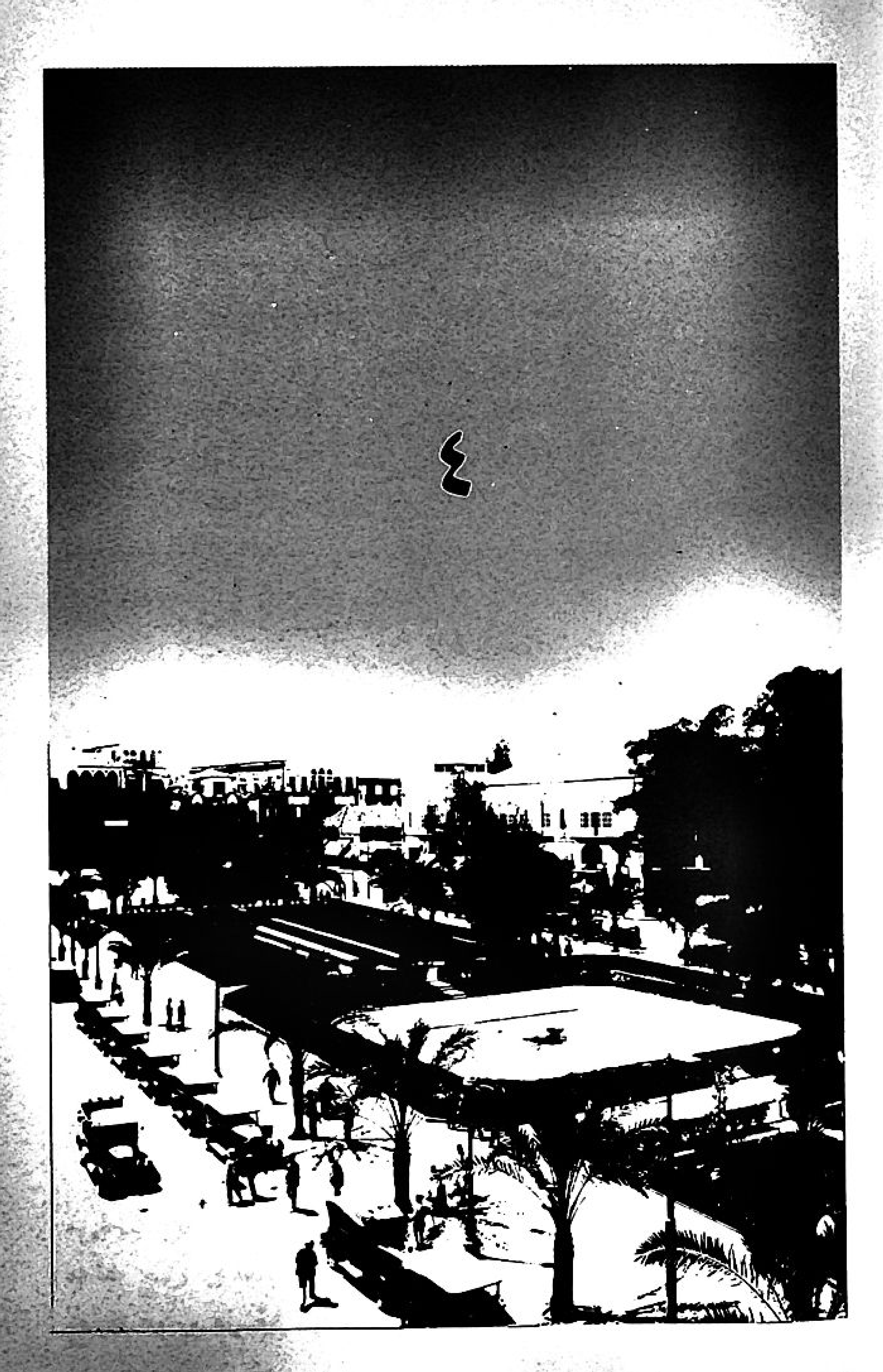


بناية المدرسة الرئيسية كما هي الآن، لم يتغير منها شيء، الى اليسار المدخل ومكتب الرئيس طوطح.



مدرسة الفرندز للصبيان كما تبدو في ١٩٩٣.

# ٤



# ١

في نهاية صيف ١٩٣٨، وكنا ما نزال في عاليه، كانت الثورة ما تزال قائمة في فلسطين، فاستقر رأي ابي ألّا نعود الى يافا حتى تهدأ الحالة. فاستأجر شقة صغيرة في رأس بيروت على مقربة من المنارة (بجانب معهد غوتـه الألماني اليـوم) وسجلني في المـدرسة الاستعدادية (الـ .I.C) التابعة للجامعة الاميركية. منذ ذلك الحين اصبحت بيروت بلدتي الثالثة، فيها أتممت دراستي الثانوية والجامعية وتعرضت للتجارب التي كـان لها اكـبر الاثر في تكـوين شخصيتي الراشدة: الدراسة التي تلقيتها خلال تلك السنوات، الصداقات التي اقمتها مع اشخاص ما زالوا اقرب الناس اليّ، الحب الذي عرفته فيها، والوعي السياسي الذي تملكته وتملكني.

كانت مدينة بيروت آنذاك مدينة ناعسة، تتكىء على شاطىء البحر الازرق بتراخٍ وكسـل. عدد سكـانها لا يتعدى ربـع عدده اليـوم شـوارعهـا نظيفـة خـاليـة من صخب الجمـاهـير وضجيج

السيارات، الا في ساحة البرج ورأس النبع. كانت معظم السيارات من نوع الفورد "ابو دعسة"، تستعمل سرفيس للمناطق التي لا تصلها الترام. وكان الترام الوسيلة الرئيسية للتنقل على ثلاثة خطوط: خط المنارة/فرن الشبّاك، خط النهر/الدورة، وخط البسطة/باب ادريس، وكلها تلتقي في ساحة البرج، قلب المدينة حيث دورالسينما والمقاهي والمطاعم البلدية وسوقيّ بيروت المشهورين، سوق الخضار في الجهة الجنوبية خلف سينما ركس، والسوق العمومي في الجهة الشمالية خلف مركز الشرطة.

امّا حي الفنادق والمطاعم والملاهي الليلية فكان يمتد من عين المريسة الى آخر نزلة باب ادريس. وكان افخم فندقين في المدينة اوتيل سان جورج واوتيل نورماندي. واهم مطعم في عين المريسة لوكولوس فوق مكتبة زيمانتسكي لصاحبها اليهودي الذي نقلها الى القدس حال اندلاع حرب الـ ٤٨. وكان ثمن الوجبة الكاملة في اللوكولوس لا يتجاوز الثلاث ليرات. اما اهم المطاعم البلدية مطعم البحري، ويقع على البحر مباشرة عند نهاية خط البسطة/باب ادريس ويشرف على الخليج الصغير الذي رُدِمَ اثناء الحرب الاهلية في نهاية السبعينات والذي انتشرت على شاطئه البارات والكباريهات واشهرها آنذاك الكيت كات والليدو. اما المقاهي البلدية فكان اجملها في رأس بيروت، تمتد من الحمام العسكري الى الروشة والرملة البيضاء، ولم يبق منها الآن الا قهوة الروضة الواقعة بمحاذاة الحمام العسكري، وتحولت المقاهي الاخرى الى مطاعم "حديثة" وكان هناك عدد من المسابح كمسبح العجمي والسان جورج في عين المريسة والسان سيمون في الرملة البيضاء ومسبح الجامعة ومسبح قمر ناحية الروشة. ولم يبق منها الا مسبح الجامعة والسبورتنغ (قمر) في رأس بيروت ومسبح السان جورج في عين المريسة.

كان لبيروت آنذاك طابع حضاري متميّز يجمع بين الثقافتين الاميركية والفرنسية، فكان مركز الاولى في رأس بيروت والثانية في الاشرفية. فالجامعة الاميركية وجامعة سان جوزف (اليسوعية)، بالاضافة الى المدارس الفرنسية والاميركية الابتدائية والثانوية، خلقت جواً ثقافياً فريداً في المنطقة وجعلت من بيروت مدينة ذات طابع غربي "مودرن" في الكثير من نواحي حياتها العامة. لكنها بقيت في الوقت ذاته مرتبطة بالجبل اللبناني وتقاليده، مما اسبغ عليها طابعاً آخر جمع بين عادات القرية وسذاجتها وبين ثقافة المدينة وتمدّنها. ومع ان احياء المدينة الاخرى، مثل البسطة والاشرفية والدورة وكركول الدروز ورأس بيروت، عكست توزيع سكانها الطائفي من مسلمين وارثوذكس وموارنة ودروز وارمن وبروتستانت، الا ان الاختلاط والتعامل بينها على المستوى الاجتماعي والعملي كان يتجاوز الفروقات الاثنية والطائفية.

كانت منطقة رأس بيروت تتألف من حرم الجامعة والمستشفى والبيوت المحيطة بهما. كان شارع الحمرا طريقاً ضيقاً تجاوره البساتين، ومنطقة الروشة حقولا خالية الا من المقاهي البلدية الصغيرة التي اختفت تماماً. اما البنايات وبيوت السكن في رأس بيروت فمعظمها على النمطين التركي والايطالي السائدين منذ القرن الماضي على ساحل البحر الابيض المتوسط. وكان يحيط باكثر البيوت حديقة او فسحة خضراء. عندما سافرت بالطائرة لاول مرة في ربيع ١٩٤٧ برفقة فؤاد نجار في رحلة الى دمشق، بدت بيروت من الجو على ثلاثة الوان: البحر الازرق، والقرميد البرتقالي، واحراش الصنوبر الخضراء المحيطة بالمدينة والمتغلغلة بين بيوتها.

كان الكورنيش الممتد من عين المريسة الى الحمام العسكري خاليا في معظم الاحيان من المارة والسيارات. كثيراً ما تمشينا هناك

في المساء ولم نر احداً او حتى سيارة. فقط ايام الاحد، وبخاصة في الربيع والصيف، النساء والاطفال كانوا يأتون الى الكورنيش ليجلسوا على الصخور او على المقاعد الحجرية التي وضعتها البلدية بمواجهة البحر حيث يتناولون ما جلبوه معهم من مأكل ومشرب.

كنا في مطلع الربيع ننتظر موسم الفاكهة بشوق ولهفة، وبخاصة موسم الفريز والاكيدنيا. وكان موسم الفريز يستمر اسبوعين او ثلاثة وكنا نتناوله مع قشطة الحليب في مطعم فيصل او مع البوظة في مقهى البارودي مقابل سينما امبير. اما الاكيدنيا فكنّا نشتريها بالكيلو ونلتهمها في جلسة واحدة.

بسبب وجود الترام لم يكن هناك سيارات سرفيس الى رأس بيروت. وكان معظم الطلاب المقيمين خارج رأس بيروت يأتون الى الجامعة بالترام. ويعرفون قاطعي التذاكر بالاسم. اما إلتاكسيات التي كانت تقف في شارع بلسّ فلم يكن عددها يزيد عن عدد اصابع اليد، يستأجرها الطلاب الاثرياء لقيادتها على الكورنيش.

بالاضافة الى مطعم فيصل كان هناك عدد من المطاعم الصغيرة في شارع بلسّ وطلعة جان دارك حيث كان الكثير من الطلاب الداخليين يتناولون طعامهم على الحساب الشهري، وعندما تنفد نقودهم كانوا يستمرون في تناول طعامهم "على الحساب" الى ان تصلهم النقود من ذويهم.

كنا عندما نسير في شارع بلسّ وشارع جان دارك نحيي معظم الذين نلتقيهم. وكان جميع اصحاب الدكاكين والحلاقين وبائعي الجرائد يتعرفون الينا منذ الفصل الاول لالتحاقنا بالجامعة. عندما عدت بعد غياب طويل الى بيروت بعد الاجتياح الاسرائيلي وجدت ان معظم الذين اعرفهم قد باعوا محلاتهم وغادروا بيروت، ولم يبق في شارع بلسّ ممن كنت اتذكرهم الا المعلم جبران صاحب محل

الحلاقة بالقرب من مطعم الانكل سام حيث كنت اقصّ شعري منذ التحاقي بالمدرسة الاستعدادية.

كانت وسائل الترفيه عديدة، منها الوسائل البريئة كالسينما والسباحة والجلوس في مقاهي الروشة، ومنها الوسائل غير البريئة كارتياد الملاهي الليلية والبارات و"السوق" او "البيوت السرية"

بالنسبة لنا، وحتى الاشهر الاخيرة من تخرجنا، كانت وسائل الترفيه هي الوسائل البريئة. في اواخر الربيع كان اجمل ما في بيروت البحر الازرق الصافي. كان السبّاحون قلائل ما عدا في مسبح الجامعة، حيث كانت السباحة جزءا من التمارين الرياضية المفروضة علينا. كنا في عطلة الاسبوع نقضي معظم الوقت جلوساً في المايوه على الصخور ندخن السجائر ونتحدث. وكنا احياناً نستأجر زورقاً بأربعة مجاذيف ونجذف الى عين المريسة، والسان جورج شمالاً او الى الروشة جنوباً ونعود عند الظهيرة لتناول الغداء ثم قضاء بعد الظهر في احد المقاهي او في التمشي على الكورنيش.

كانت المقاهي البلدية في رأس بيروت فارغة في معظم الاوقات من الزبائن، فالجلوس في مقهى الروضة مثلاً او في مقهى دبيبو بعد الظهر ممتعاً بشكل خاص. كنا انا وصديقتي البولونية كثيراً ما نركب الترام من بوابة الجامعة حتى آخر الخط، ثم نسير في طريق المنارة الى الروشة ونجلس في مقهى الغلاييني الى طاولة نائية تطل على البحر ونحتسي قهوتنا وندخن سجائر البافرة ونتماسك بالايدي تحت الطاولة. وفي الخريف، عندما يبرد الطقس، نركب الترام الى باب ادريس ونجلس في احد مقاهي الشاي في زاوية منعزلة، حيث كان الضوء منخفضاً والموسيقى خافتة رومانطيقية ونرقص أحياناً على انغام التانجو الساحرة.

## ٢

كان انتقالنا الى بيروت بداية حقبة جديدة في حياتي، لعلها الاعمق أثراً في تكوين شخصيتي. قضيت السنة الاولى ١٩٣٨ - ١٩٣٩ طالباً خارجياً. وعندما عاد ابي وامي الى يافا بعد نهاية الثورة سنة ١٩٣٩ سجّلت طالباً داخلياً فأقمت في تومسون هول في غرفة على الطابق الارضي ضمّت ثمانية طلاب في سني.

كان خروجي من كنف العائلة بداية الحرية. اكتشفت ان الحرية في تلك السن تتخذ اشكالاً عدة اهمها تدخين السجائر. في سوق الغرب حيث كنا نقضي عطلة الصيف، حاولت مرة التدخين في الحديقة الخلفية للبيت وراء شجرة عارية الاغصان، فما ان اشعلت السيجارة حتى اخذت بالسعال، وسمعت اخي خالد ينادي من الشرفة حيث كان يراقبني دون ان انتبه، فهرعت الخادمة تنادي امي. وكانت النتيجة أنّ والدي انّبني تأنيباً شديداً فشعرت بمهانة وحنق لم اشعر بمثلها في حياتي حتى اني لم استطع النوم في تلك الليلة. عند الفجر قررت التخلي عن عائلتي. وقمت قبل ان يستيقظ احد واغتسلت بسرعة ووضعت بعض الاغراض في بقجة صغيرة واخذت من المطبخ رغيفاً وقطعة من الجبن وغادرت البيت دون ان يحسّ بي احد. كانت الساحة العامة في تلك الساعة خالية من الناس والسيارات. لم اعرف بأي اتجاه اسير، يميناً في الطريق العام نحو عاليه او يساراً باتجاه قرى الشوف الدرزية. واخيرا سرت نحو عاليه. بعد مضي ساعة او اكثر طلعت الشمس من وراء الجبال وبدأت اشعر بالحرارة والتعب، فجلست الى جانب الطريق واكلت الرغيف وقطعة الجبن ثم تابعت سيري. وعندما وصلت الى عين السيّدة، على مشارف عاليه، بدأت الشكوك تراودني في صحة

خطّتي، واخذت افكّر بالعودة، لكن كبريائي منعني، فتابعت السير متباطئاً، ألتفتُ الى الوراء بين الحين والآخر، راجياً ان يكون ابي او اخي نظام او اخي نظيم في احدى السيارات القادمة من ناحية سوق الغرب الى البيت. وعند وصولي الى طلعة مدخل عاليه كان اليأس قد استولى عليّ ليرجعني. لا احد يريدني، انا وحيد في هذا العالم. ليس امامي الا الضياع والموت. جلست الى جذع شجـرة بجانب الطريق، والدموع تنهمر من عينيّ، ثمّ غلبني النوم. استيقظت على صوت يناديني. رأيت سيارة تتوقف الى جانب الطريق وينـزل منها اخي نظام فأركض اليه وارمي نفسي بين ذراعيه واتمسّك به لا اريد ان افارقه.

## ٣

تعلمت التدخين في المـدرسة الاستعـدادية عـلى يد عمـران صبحي. كان يقيم معي في الغرفة نفسها. لدى نزولي من السيارة في مطلع فصل الخريف كان عمران اول من رأيت من زملائي. كان واقفاً امام مدخل تومسون هول، فقام وساعدني على حمل اغراضي الى الغرفة ووضعها فوق السرير المخصّص لي. اول ما لفت نظري لهجته الشاميّة. كان شكله لا يلفت النظر: صغير الحجم، هزيل الجسم، تعلو وجهه صفرة دائمة، الا انه كان ذو شخصية كرزماتية متميزة. كان سريره والفسحة المزدوجة امام خزانتـه المجاورة محـور الغرفة ومركزها الاجتماعي. كان يملك سخّانة كهربـائية يستعملهـا لصنع القهوة والكاكاو ولتحميص سـاندويش الجبنـة القشقوان مـع الزبدة التي كان يقدمها الى المقربين منه في ساعات بعد الظهر على

ضوء شمعة او مصباحه الكهربائي او بعد ان تطفأ الانوار في المدرسة الداخلية. كان يحتفظ بالسجائر على انواعها المختلفة، من البافرة المحلية الى البليرز الانكليزية واللاكي سترايك الاميركية. علّمنا ان نضع قطرة او قطرتين من العطر العربي على لفافة السجائر المحلية لاعطائها نكهة مشابهة لنكهة السجائر الانكليزية والاميركية. وذات يوم قدم لي سيجارة من نوع "كريفن إي"، وكانت تعتبر من افخم انواع السجائر اطلاقاً. جلست في مكان منعزل بين الاشجار بالقرب من المكان الذي تقوم فيه الآن بناية كلية الهندسة في الجامعة الاميركية، واشعلت سيجارة الـ كريفن إي واخذت منها نفساً عميقاً، تماماً كما كان يفعل عمران. كدتُ اختنق واصابني دوار شديه وشعرت اني على وشك التقيوء، جلست عدة دقائق بلا حراك الى ان عدت الى شبه حالتي الطبيعية. رميت السيجارة ارضاً ودستها برجلي على ان لا اعود الى التدخين ابداً. ولم المس سيجارة اخرى الى ان قدّم لي عمران سيجارة قائلاً انها "خفيفة" وذات نكهة نادرة. كنا في غرفة النوم بعد الظهر والبناية خالية من الطلّاب. اخذ عمران سيجارة واشعلها ببطء. كان التدخين بالطبع ممنوعاً علينا منعاً باتاً والعقاب شديد لمن يُضبط بهذه الجريمة. ضحك عندما رأى معالم الرعب على وجهي: "لا تخف، لا يوجد في البناية احد."

واخذ يعدّ قدحاً من الكاكاو والسيجارة بين شفتيه كأنه يمتلك تومسون هول. كان دائماً يحب الظهور بمظهر الشخصية القوية اللامبالية، واعطاء الانطباع انه صاحب مواقف بطولية. وكان ذلك يترك اثراً عميقاً في نفوسنا.

وبالفعل كان عمران لا يبالي بالسلطة والقانون. كانت الدراسة لا تعني له الكثير، فلم يكن يعدّ لدروسه اكثر مما يتطلبه تحصيل علامة C او D اي وسط او دونه، ولم اسمعه يوماً يتحدث

في موضوع فكري او يناقش قضية أثيرت في الصف. لا اذكر له وجوداً في الصفوف التي كنا نأخذها سويةً. يجلس دائماً في صف المقاعد الاخير ولا يتكلم الا عندما يوجّه اليه الاستاذ سؤالاً فيجيب عليه بأقل عدد ممكن من الكلمات. كان يتصرف داخل الصف كأنه زائر عابر لا علاقة له بما يجري فيه، ولا جلد له على الالعاب الرياضية التي كانت حياتنا تدور عليها، فيرفض الاشتراك في العاب الفوتبول والباسكتبول، ونادراً ما كان يرافقنا الى مسبح الجامعة عندما يبدأ موسم السباحة في الربيع. شاهدته مرة او مرتين في لباس البحر جالساً تحت مظلة يخفي في يده سيجارة مولّعة يشفط منها نفساً بين الحين والآخر وهو يروي احد قصصه لعدد من اتباعه الذين يرافقونه اينما حلّ. لم يكن له صديقاً واحداً بل شلة من الاتباع، يشاركونه في شرب القهوة والكاكاو ويرافقونه ايام السبت بعد الظهر الى السينما.

كنت احياناً اعتبر عضواً في هذه الشلة، واحياناً كان يُنظر اليّ على اني خارجها كلياً، وذلك تبعاً لموقف عمران منيّ. كانت تمر اسابيع وعلاقتنا على احسن حال، ثم فجأة يحدث ان اقوم بعمل او ان اتفوّه عن غير قصد بكلام يزعجه لسبب ما، فيتغير موقفه نحوي ويتوقف عن دعوتي الى تناول الكاكاو ومرافقة الشلة الى السينما. فابتعد عنه لفترة دون ضغينة او غضب، واستمر في تحيته باسماً كلما التقيت به، الى ان ينسى اساءتي اليه فيعود عن صمته العميق فيدعوني الى مرافقته ويقدم لي السجائر والكاكاو.

أحب التسليات الينا كان حضور الافلام السينمائية. الذهاب الى السينما كان الحدث الشهري الأهم في حياتنا. كان عمران يختار الفيلم الذي سنشاهده والمكان الذي سنجلس فيه بالصالة. فكنا نجلس احياناً في البلكون وندفع الثمن الباهظ، ٤٥ قرشاً، او في

القاعة العامة وندفع ١٥ قرشاً. وكانت الصالتان المفضّلتان لدينا الكريستال (والغران تياتر) وتقع الاولى داخل سوق الخضرة بمحاذاة ساحة البرج والثانية في رأس شارع المعرض. وكانت سينما الكريستال من الدرجة الثالثة اما الغران تياتر فكانت من الدرجة الثانية. وكانت احب الافلام الينا المسلسلات البوليسية (ديك تريسي) وافلام بيتر لوري التي يلعب فيها دور المستر موتو البوليس السري الياباني الاصل والخبير بالجوجستو التي كان يمارسها بخفة ورشاقة مذهلتين. وكنا عندما يحين موعد ذهابنا الى السينما نتناول الغداء بسرعة، ثم نغتسل ونسرّح شعرنا بالبريل كريم اللمّاع، ونرتدي ثياب الخروج. وبعد ان يوقّع لنا المستر بسّول والمستر مطران على التصريح الذي يسمح لنا بمغادرة المدرسة من الساعة الواحدة بعد الظهر حتى الساعة السادسة مساء، نستقل ترام المنارة/فرن الشباك الى ساحة البرج ثمّ نترجل عند موقف سينما روكسي قبل ان يتوقف الترام وذلك حسب العرف المتبع بيننا بان لا نركب الترام او نترجل منه الا وهو سائر. اول شيء نفعله هو تناول كأس عصير البرتقال عند مدخل سوق الخضار، ويصرّ عمران على ان يدفع الحساب عن الجميع. ثم نتجوّل قليلاً في سوق الخضار، اذا كنا سنحضر فيلماً في سينما الكريستال، او نسير باتجاه شارع المعرض اذا قررنا مشاهدة فيلم الغران تياتر. كانت المقاعد مرقمة في كافة صالات السينما في بيروت، حتى صالات الدرجة الثالثة مثل الكريستال، فكان عمران يبعث احدنا لشراء التذاكر باكراً وانتظارنا عند مدخل الصالة. ما يمكننا من التجول حتى قبل بداية العرض بدقائق فنصل الى السينما والاضواء تخفت تمهيداً لبدء الفيلم. فنجلس في مقاعدنا الوثيرة (وكانت المقاعد حتى في سينمات الدرجة الثالثة وثيرة في تلك الايام) ونشعل السجائر التي يوزعها علينا

ويتصاعد عبير البافرا المعطرة مختلطاً برائحة سجائر عمران الانكليزية، ونغيب في عالم ديك تريسي او مستر موتو لفترة ساعتين في حالة من المتعة الكاملة. وعندما تضاء الانوار نطفىء سجائرنا ونعود الى عالم الواقع ونسير الى ساحة البرج لنتوقف، كما كان عهدنا، امام منصة الساندويش الصغيرة الملاصقة بمقهى ابو عفيف ونلتهم عدة ساندويشات من المقانق المطفأة بالحامض الى جانب عدد كبير من فطائر السبانخ. واذا كانت الساعة ما زالت مبكّرة نسير في ساحة البرج الى شارع ويغان ونستقل الترام من المحطة الواقعة امام محل نجّار او تلك التي تليها عند رأس طلعة باب ادريس. اما اذا كانت الساعة قد تعدت الخامسة والنصف فنستقل الترام من المحطة مقابل سينما روكسي لتأمين عودتنا الى المدرسة في الموعد المحدد لنا وهو تمام السادسة.

## ٤

في بداية العام الدراسي التالي انتقلت من تومسون هول الى سيج هول، فتغيّر مجرى حياتي الى حدّ كبير، فأصبح لدي صداقات جديدة وانقطعت علاقتي بعمران وشلّته طيلة ما بقي من سنوات المدرسة الاستعدادية. لكن كنت اراه من بعيد بين الفترة والاخرى. التقيت به ذات يوم بعد انتقالنا الى صف الفرشمن في الجامعة. ناديته من بعيد. خيّل اليّ انه لم يعرفني، الى ان اقترب مني وعلت وجهه ابتسامة. كان اشد هزالا من السابق، وتحت عينيه شحوب واضح. دعوته الى تناول فنجان من القهوة في الميلك بار، وجلسنا الى طاولتي المفضلة بالقرب من النافذة. اشعل سيجارة واخذ منها

نفساً عميقاً ولم يلفظ شيئاً من الدخان الذي استقر في صدره النحيف. سألته عن دروسه. قال انه تخصّص في "ادارة الاعمال"، ولم يُبدِ حماساً كبيراً للموضوع. قال انه ضجر من حياة التلمذة ويفكر بمغادرة الجامعة للعمل في وظيفة أتيحت له في دمشق. سألته اذا كان يعرف شخصاً اسمه يحيى حمصي من دمشق. كان يحيى من دمشق ايضاً وقد نشأت بيني وبينه صداقة حميمة. قال: "أليس هو الشاب الذي يدرس الأدب الانكليزي ويريد ان يصبح كاتباً؟"

قال ذلك بشيء من التهكّم، لكن بلهجة غير عدوانية. وتبيّن ان يحيى كان يسكن في الحي نفسه (سوق سروجة) الذي يسكن فيه عمران وبالقرب من بيته في دمشق. تذكرت ان عمران تربى يتيماً في بيت جدّه، تماما مثل يحيى الذي عاش في كنف خاله بعد وفاة والديه. لكن كم كان حجم الفارق بينهما. يحيى المتفائل والمتحمس لحياة الفكر والادب، وعمران المتشائم، الساخر بكل ما له علاقة بالفكر والادب.

تحدثنا قليلاً عن ايام تومسون هول ثم افترقنا على ان نلتقي في القريب.

لم نلتق الا بعد مرور اكثر من ثلاثين عاماً وذلك في صيف ١٩٧٦ عندما قمت بزيارة الى بيروت اثناء الحرب الاهلية. كانت الحالة قد هدأت نوعاً ما، وكنت اقيم في شقة في نزل الاساتذة المطلّ على نادي خريجي الجامعة الاميركية. عند وصولي التقيت بفضيل سلطي، احد اعضاء شلة عمران واقربهم اليه، واخبرني ان عمران موجود في بيروت وانه سيسافر الى افريقيا في اليوم التالي. وسألني اذا كنت ارغب في رؤيته قبل سفره. واتفقنا على ان نلتقي مساء ذلك اليوم في مقهى الهورس شو.

كان عمران جالساً في زاوية منعزلة من المقهى والى جانبه امرأة

في الثلاثينات من عمرها. لم يتغير في شكله او حركاته. عانقني بحرارة وعرّفني الى المرأة التي بجانبه دون ان يذكر اسمها (اخبرني فضيل فيما بعد انها زوجته). سألته عن سبب سفره الى افريقيا، فقال انه يقوم بمشروع تجاري في نيجيريا ثم غيّر الموضوع. بدا في حالة توتر، يلتفت كلما رأى شخصاً يدخل المقهى الخالي تقريباً من الزبائن. علمت من فضيل فيما بعد انه غادر دمشق "لاسباب سياسية". سألني عن احوالي وقال انه يتتبع نشاطاتي، لكنه كان شاردَ الفكر ولا يستطيع التركيز على موضوع. ولم تتفوّه زوجته بكلمة طيلة جلوسي معهما. وبعد برهة قصيرة قام مودعاً وعانقني برفق قائلاً: "سنلتقي قريباً هذه المرة."

توفي عمران بعد بضع سنوات من لقائنا في مقهى الهورس شو. اخبرني فضيل انه عاد من افريقيا "خالي الوفاض"، ثم اصابه مرض عضال أودى بحياته.

## ٥

تزامن التحاقي بالمدرسة الاستعدادية مع اندلاع الحرب العالمية الثانية. شاهدت الحرب لاول مرة خلال عطلة صيف ١٩٤٠ وانا في عكا. كنت جالساً في خيمتي فوق السطح عندما اطلقت صفارات الانذار وسمعت جدتي تنادي: "غارة، غارة. الى الكرار." وكان الكرار هو القبو تحت المنزل حيث تخزن المؤن وعدّة البَسْتَنة، اعدته جدتي في بداية الحرب ليكون ملجأ اثناء الغارات الجوية، وزودته بكل شيء سوى الشموع. اجلت شراءها ثم نسيتها تماماً.

جلسنا في الظلمة واجمين صامتين نَصيخ السمع. مضت دقائق

ولم يحصل شيء. فتحت جدتي باب الكرار، فسمعنا جلبة آتية من جهة بيت الجيران ومن فوق سطح المسجد الصغير المحاذي للبيت. كان الجيران وشيخ المسجد ومساعدوه على السطح يتطلعون نحو حيفا وهم يشيرون بأصابعهم ويهللون. خرجت من الملجأ وصعدت راكضاً الى سطح البيت. رأيت الناس على السطوح يتفرجون على الغارة التي تشنها الطائرات الايطالية على ميناء حيفا ومصفاة البترول المتاخمة لها، والتي تقع على الجهة المقابلة لخليج عكا. كانت القذائف المضادة للطائرات تنفجر عالياً في الجو طابات من الدخان لا يسمع صوت لها. وتبينت طائرتين ترتفعان في الجو ثم تختفيان وراء الغيوم. في المساء قالت اذاعة لندن ان الطائرات اقلعت من جزيرة رودس، وان الغارة استغرقت بضع دقائق وان مصفاة البترول وميناء حيفا لم يصابا وانه لم تقع خسائر في الارواح.

والمرة الثانية والاخيرة التي شاهدت فيها غارة اثناء الحرب كانت في بيروت في بداية السنة الدراسية في خريف ١٩٤١. كنا في صف الاستاذ موسى سليمان وقد بدأ رمزي صهيون بتعريب بيت قصيدة حفظناها عن ظهر قلب في الاسبوع الماضي وبدا على وجه رمزي انه لم يسمع بها قط. فجأة علت صفارات الانذار فساد صمت عميق شمل البناية بأكملها. صاح رمزي بحماس: "استاذ! غارة!"

في تلك الساعة سمعنا هرجاً ومرجاً وصوت الطلاب يتصايحون وهم ينزلون الادراج الى خارج البناية. نادى موسى سليمان: "لنخرج على مهل دون ضجيج."

تدفقنا الى الباحة يتقدّمنا رمزي صهيون نحو "الملجأ" الذي كان عبارة عن خندق في ملعب كرة القدم أمام بناية روكفلر التي تقع فيها غرف الدراسة.

وقفنا في الخندق ننظر الى السماء الزرقاء لعدة دقائق ولكن لم يحدث شيء. وبدأ حماسنا يتحول الى ملل. ثم فجأة سمعنا هدير طائرات آت من بعيد. صاح احد الطلاب وهو يشير بيديه: "هناك! هناك!" نقطتان فضيتان تلمعان في الجو عالياً، آتيتان من الشرق. كان واضحاً من علوهما انهما لا يقصدان الاغارة على بيروت. وما هي الا بضع دقائق حتى اختفتا عن الانظار فوق البحر.

طيلة ايام الحرب لم اسمع رصاصة واحدة تطلق او قنبلة تنفجر. شاهدنا الحرب في السينما في "الاخبار المصوّرة" التي كانت تعرض قبل بداية الفيلم، وفي الصحف والمجلات، لكننا لم نختبر شيئاً من قسوة الحرب وآلامها. ففي حين دُمِّرَتْ مئات المدن وقُتل الملايين من البشر كنا نعيش في بيروت في الـ I.C. ثم في الجامعة حياة هانئة منعزلة عن العالم الواقعي. اختبرنا الحرب فقط بافتقاد بعض المواد الغذائية، مثل السكّر النقي والخبز الابيض والشكولاته الاجنبية. الا اننا لم نحرم من السكر البني اللون او الخبز الاسمر او الشكولاته المحلية. ومن كان لديه مال استطاع شراء كل ما تشتهيه النفس. فالأغذية من سكر وارز وخبز فرنجي وابيض وخضار ولحوم وفاكهة وحاجيات مستوردة كانت متوفرة في الاسواق. كانت اسواق البرج وباب ادريس تعجّ بالناس من الصباح الى المساء. وكانت بيروت في فترة الحرب هذه التي شهدت نهاية الانتداب وقيام حكومة فيشي والاحتلال البريطاني وبداية الاستقلال الوطني حافلة بالحركة والنشاط. بدل العذاب والدمار جلبت علينا الحرب اليسر والثراء بسبب ما انفقته الجيوش الاجنبية من اموال. كان البناء على قدم وساق في كل انحاء المدينة، وبخاصة في وسطها، حيث شيدت خلال سنوات الحرب بعض اجمل مباني بيروت الحديثة، مثل سينما دنيا وسينما اوبرا في ساحة البرج، واوتيل النورماندي في حي الزيتونة

الذي نافس اوتيل السان جورج منزلة واناقة. وانتعشت كذلك البارات والملاهي الليلية رغم التعتيم الاجباري، وكان قضاء السهرة في الليدو او الكيت كات من المتع الجميلة الخاصة ايام الحرب.

كان رمزي صهيون من حيفا اكبرنا سناً واضخمنا حجماً، وكان كلما عاد من العطل المدرسية الى بيروت نزل هو واصدقائه في احد فنادق البرج لقضاء بضعة ايام قبل بدء الدراسة وذلك بغرض ارتياد المقاهي والسينمات والملاهي الليلية. وفي بداية كل فصل كان وصحبه يطلعون علينا، نحن الطلاب الاصغر سناً، بحكايات عن مغامراتهم مع ارتيستات الليدو والكيت كات والبيوت "السرية"، ونبقى اياماً نستمع اليهم بشغف واعجاب ونحلم باليوم الذي كنا سنصبح في مثل سنهم لنفعل ما كانوا يفعلون.

٦

تمثّلت الحرب في الظلام الذي كان يلف حياتنا نهاية كل يوم. فعند هبوط المساء كانت بيروت تتحول من مسرح واسع تغمره الشمس بضوئها الفضي الى ظلمة زرقاء تغمر المدينة. فجأة تنعدم الضوضاء وينتهي الزحام، ولا يبقى في الشوارع الا اشباح تظهر ثم تختفي في الظلمة الزرقاء. كنا ندخل هذا العالم فقط بصحبة احد المشرفين علينا في تومسون هول (المستر بسّول او المستر مطران)، وذلك لتناول البوظة او الساندويش عندما نخرج الى احدى المقاهي الصغيرة في شارع بلس، او للذهاب الى السينما. وكان الذهاب الى السينما في المساء حدثاً نادراً يمثل لنا قمة المتعة. ومن حسن حظنا ان المستر مطران كان من عشاق الافلام.

في ليلة في مطلع الربيع كان فيها القمر هلالاً، دعانا المستر مطران الى شقته بعد انتهاء فترة الدراسة الليلية. وقال: "من شاهد منكم فيلم "نمر البنغال"؟"

كنا قد شاهدناه جميعاً. لكننا تظاهرنا اننا لم نسمع به. فنحن دائماً على استعداد كامل لحضور اي فيلم، وبخاصة اذا كان في حفلة الساعة التاسعة.

اذكر تلك الليلة بوضوح. كان الطقس دافئاً والهواء يهبّ من البحر عطراً يغلف الاشياء بضوء خافت، كما نراها في الاحلام. وفعلاً حدث ما يبدو لي الان حلماً. الا اني اعرف انه حادث وقع بالفعل. في الذاكرة يختلط الواقع بالخيال لكنه يبقى واقعاً وان تغير تمثّلنا له. لم اذكر هذا الحادث لاحد، حتى لعمران الذي كان رفيقي في تلك الليلة السحرية. ولم اتذكره الا الآن وانا استعيد احداث حياتي في تلك الفترة.

نصعد الترام الخالي من الركاب، نحن الاربعة والمستر مطران الذي يجلس مع زميلينا في مقدمة الترام، ونجلس انا وعمران في الخلف، انا بمحاذاة النافذة وهو الى جانبي. اكاد لا اراه في ضوء اللمبة الكهربائية الوحيدة في سقف الترام المصبوغة بالدهان الازرق. اضع قدمي فوق المقعد الخالي امامي واسند ظهري الى المقعد الخشبي واجيل نظري في الظلمة حولي. يسير الترام الى محطة الجامعة، ولا يصعد ركاب. يتوقف في محطة المستشفى وايضاً لا يصعد احد. في محطة الديك، حيث تقوم الثكنة المخصصة لسكن الضباط الفرنسيين وعائلاتهم، يصعد راكبان اتبين انهما امرأتان. تتوقفان حيث نجلس انا وعمران وتجلسان في المقعدين المقابلين. بدا ذلك مستغرباً، فكل المقاعد حولنا كانت شاغرة. تكاد احداهما ان تجلس على قدمي قبل ان اسحبها بسرعة. اراها امامي شبحاً لا

اتبين منها الا فستانها الابيض واتنشق عبير عطرها الفرنسي المُسكر. عندما يسير الترام تقدم سيجارة الى صديقتها وتضع اخرى بين شفتيها وتشعل السيجارتين بنار قداحتها. في الضوء الملح وجهها. رأيتها تنظر اليّ في اللحظة التي كنت احاول ان اتبينّ وجهها. كانت فرنسية بلا ادنى شك. بعد قليل، تتبادل بعض الكلمات بالفرنسية مع صديقتها. تنظر لي دون ان يرمش لها جفن. ادير وجهي واعود الى تأمل الظلمة. عندما نصل الى محطة الفرير يخفف سائق الترام من سرعته. وعندما يرى انه لا يوجد ركاب لا يتوقف ويعاود سرعته، مما يجعل المرأة الجالسة امامي تندفع الى الامام فجأة فتمس ركبتاها ركبتيّ. اعتدل في جلستي واسحب نفسي الى الوراء قدر الامكان. لكن ركبتاها لا تتزحزحان واشعر بساقيها حول ركبتي اليمنى. تجمدت في مقعدي، احدق في الظلام. الترام يجري بسرعة بمحاذاة وادي ابو جميل ثم يتوقف في باب ادريس ويصعد راكبان. يأتي بائع التذاكر، الذي كان حتى الان جالساً بالقرب من السائق يتحدث اليه، ليقطع لنا التذاكر مصوباً مشعل بطاريته نحونا. ترفع المرأة رأسها نحو بائع التذاكر وتضع النقود في يده. ارى وجهها واحمر الشفاه الغامق على شفتيها. كانت ربما في الثلاثين من عمرها. تغير من جلستها بشكل عفوي، لكن ضغط ساقيها على ساقي يبقى على ما هو. (كنت ما ازال ارتدي البنطلون القصير). احسّ انها تنظر نحوي في الظلمة واستمر في النظر من خلال النافذة دون حراك.

عندما نصل الى ساحة البرج يقف عمران استعداداً للنزول، واقف بدوري. ترفع رأسها وتنظر اليّ. ارى بريق عينيها، ويخيّل لي انها تبتسم لي بتهكم. اسمع المستر مطران ينادي اسمي فاسرع بالنزول. في السينما اجلس شارد الذهن. كنت ما زلت احس

بحرارة ركبتيها. ما الذي حدث؟ هل تحرّشت بي، ام خيّل لي؟ ارى ابتسامتها وبريق عينيها. أراهما الآن.

## ٧

عند التحاقي بالمدرسة الاستعدادية في بيروت كانت ثقتي بقدرتي على الكتابة قد بدأت بالنمو والتزايد. يعود ذلك بالاكثر الى الاثر الذي تركه في نفسي معلم اللغة العربية في مدرسة الفرندز للصبيان في آخر سنة قضيتها هناك. كان اسمه فرج، وكان شاباً من غزة في العشرين من عمره، قليل الكلام، وقوراً في مظهره، متزناً في حركاته. درّسنا اللغة العربية باهتمام لم اعهده بالمدرسين الآخرين. تعلمت منه القراءة وحب الكتب. قرأت تلك السنة "اسفار جلفر" و"روبنسون كروزو" و"رحلات السندباد البحري" وغيرها من القصص التي ترجمها او لخصها كامل الكيلاني في سلسلة كتب خاصة بالاطفال نشرتها دار المعارف بمصر مزيّنة برسوم ملوّنة. وكان الاستاذ فرج اول من نقد نصاً كتبته على شكل قصة قصيرة. لا انسى اليوم الذي دخل فيه قاعة الدرس وتحت ابطه مواضيع الانشاء التي كنا قدمناها له في الاسبوع الفائت. قال وهو يجلس الى الطاولة: "سأقرأ عليكم اليوم قصة بقلم هشام شرابي."

اذكر صوته وهو يقرأ القصة بكاملها. تلقاها افراد صفي باعجاب ودهشة. لأول مرة اسمع كلامي من خلال صوت آخر. شعرت بوجودي خارج نفسي. اذكر مطلع القصة: "كان المطر ينهمر بشدة والريح تعصف بجنون عندما دقت الساعة الثانية عشرة..."

معلم آخر ترك في نفسي اثراً كبيراً هو منير سعاده الذي درّسني

في اول سنة التحقت فيها بالاستعدادية في بيروت ثم درست عليه عدة مواد في السنوات اللاحقة، واهمها مادة تدعى بالانكليزية Human Conduct. انه يعدّ محاضراته كما لو كان يحاضر على مستوى جامعي، ويعاملنا معاملة الكبار. كنا نستمع اليه بشغف ونسعى للاجتماع به خارج الصف. كان، مثل الاستاذ فرج، مدرّس من نوع مميّز يختلف عن المدرسين الآخرين. كل هدفه انماء قدراتنا الذاتية وتحقيق استقلالنا النفسي. بقيت على اتصال به حتى بعد انتقالي الى الجامعة والى ان هاجر الى اميركا قبل تخرجي بسنة او سنتين. وبعد مرور عشرين عاماً التقيت به في واشنطن وقمت انا واسامة قدري (وكان اسامة قد عيّن في السفارة العراقية في واشنطن) بزيارته في "تشوت" المدرسة التي كان يدرّس فيها وتعتبر احدى اشهر المدارس الخاصة في الولايات المتحدة. ولما صدر كتابي Neopatriarchy منذ بضع سنوات كان منير سعاده قد تقاعد واصبح في الثمانينات من عمره. تسلمت منه رسالة بالانكليزية في اكثر من عشر صفحات يعلّق فيها على الكتاب بلهفة وحماس، كما كان يفعل عندما كان يقرأ شيئاً كتبته وانا في الصف الثالث او الرابع ثانوي. يقول في الرسالة بلهجته المازحة: "كنت ادرك دائماً انك ستكون يوما ابن خلدون القرن العشرين، وقد ايقنت الآن انك في الطريق الى تحقيق ذلك."

كنت على جانب كبير من الحظ بأني التحقتُ منذ الصغر بالمدارس الاجنبية التي لم اتعرض فيها الى الثقافة الابوية التقليدية واساليبها القمعية. وكنت محظوظاً بخاصة بأني درست على مدرّسين، مثل فرج ومنير سعاده وشارل عيساوي، غرسوا في نفسي الثقة والشعور بالاستقلال. لكن حتى في هذه المعاهد التي توفر فيها قدر كبير من الحرية الذاتية بقي الفكر والثقافة مسائل مجرّدة. ومن خبرتي

الخاصة اعرف ان ما نعجز عن تحقيقه بأنفسنا في المدرسة والجامعة لا يستطيع اساتذتنا، مهما كانت حظوتهم من "العلم" و"الثقافة"، تلقيننا اياه. التوصل الى الحرية الذاتية والاستقلال الفكري لا يأتي من خلال "التعليم" بل عن طريق الممارسة الفعلية في جو خِلْوٍ من السلطة الابوية وقمعها.

تعرفت الى حزقيل جوري في سنتي الاخيرة في الاستعدادية وكان لقائي به حدثاً هاماً في حياتي. كان جوري (هكذا كنا ندعوه) عراقياً يهودياً من بغداد (آنذاك لم نكن نعر دين الشخص او هويته اي اهتمام، هويته الوحيدة كان يقررها مسلكه الشخصي). ما لفت نظري الى جوري في باديء الامر اناقة ملبسه. كان دائماً يرتدي البذلات المفصّلة احسن تفصيل وربطات العنق الثمينة. غير انه في الوقت ذاته كان قليل الاهتمام بمظهره، تاركا ربطة عنقه في غير مكانها ورباط حذائه دون انعقاد. كان في مظهره ومسلكه الفنان او الشاعر المشتّت الفكر، الساهي عما حوله، كما تبين لي بعد ان تعرفت اليه جيداً. كان فنانا يهوى الرسم، لكنه ايضاً يهوى المسرح والروايات المسرحية. دهشت عندما اخذ يحلل لي ذات يوم تركيب الرواية المسرحية بلهجته العراقية مستعملاً تعابير فنية لم اعهدها من قبل. قال ان الرواية المسرحية تشكل نصاً ادبياً فقط في احدى وجوهها، اما ماهيتها فتتجسد في الاختبار الحي الذي يصنعه لا كاتب الرواية وحسب بل جميع من يشارك في جعلها واقعاً مرئياً على المسرح من مخرجين وممثلين وفنيين. كنت حتى ذلك الوقت "تقليدياً" في قراءتي، لا اعرف الا اختبار القارىء في وحدته التامة مع النص المكتوب. كانت مقولات الحس ذاتها، الجسد، الحضور، اللذة، تعابير مجردة. ودون ان ادري فقد خطوت الخطوات الاولى آنذاك باتجاه التخلي عن مثاليتي الفكرية ووجدتني على استعداد اكثر لتلقي.

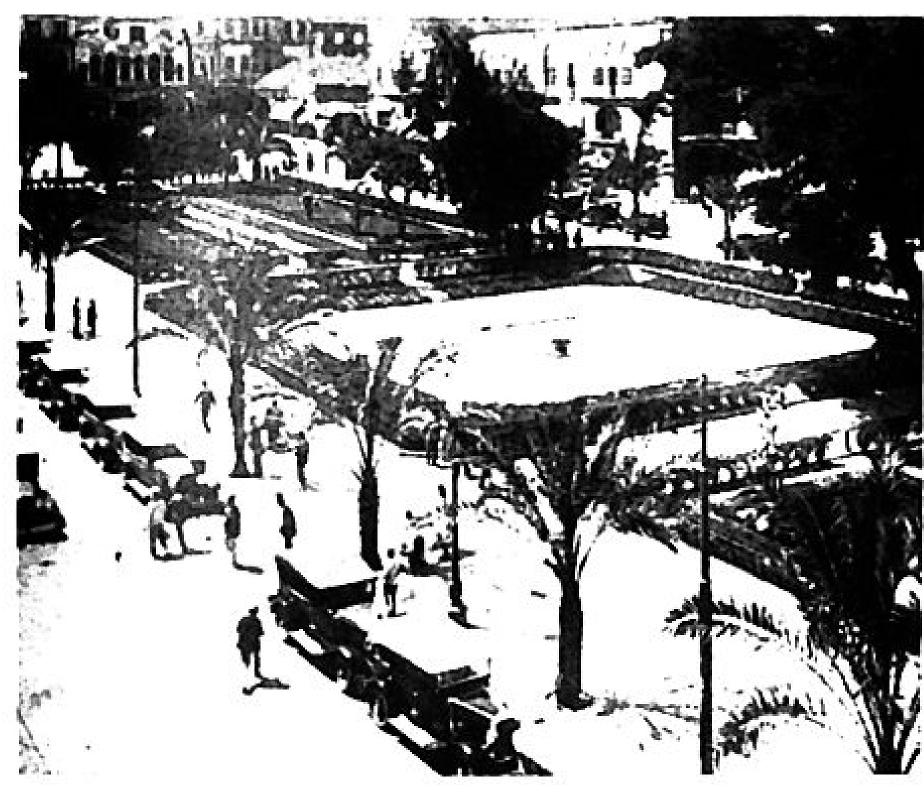
الاختبار المباشر وليس فقط ما ينبع من الفكر او العقل.

قامت صداقتي بحزقيل جوري، كما لم تقم اية صداقة اخرى في تلك الفترة من حياتي، على التذوق الفني، لكني اشعر اني اكاد لا اعرف من كان حزقيل جوري. في حياتي لم اعرف شخصا على شاكلته. ما زلت حتى اليوم كلما زرت معرضاً للصور او حضرت اوبرا او مسرحية يمر بخاطري شبح حزقيل جوري. هو الذي جعلني اقرأ اول مسرحيتين قرأتهما في حياتي: "بيرجنت" لهاينرك ابسون و "بجماليون" لجورج برنارد شو. قرأتهما قراءة "مسرحية" كما شرحها لي، من منطلق التركيب المسرحي: تنظيم المشاهد، الديكور، الاضاءة، وليس فقط من زاوية الحدث والحوار. كانت تلك القراءات بالنسبة لي "نقلة" فكرية عميقة لا على مستوى القراءة وحسب، بل على مستوى النظر والتفهم و"الكتابة"

هل اغالي في عمق الاثر الذي تركه في نفسي هذا الشاب العراقي وانا لم ازل في السادسة عشرة من عمري؟ ربما. لكن لا اظنني ابالغ في وصف النشوة التي امتلكتني بفعله والافاق التي تفتحت لي من خلاله، والتي ما زالت جزءا من معالم حياتي الفكرية والعاطفية.

قبل التخرج ببضعة اسابيع وقع خصام بيني وبين جوري لا اذكر سببه، وانقطعت العلاقة بيننا. كنا عندما نتقابل في الكافتيريا ينظر الي متوقعاً ان ابتسم اليه او ان احييه، غير ان عنادي كان يمنعني من ذلك. يوم مغادرتنا الاستعدادية بعد التخرج رأيته في احدى بذلاته الانيقة (وكان فصل الحر قد ابتدأ) يحمل حقيبته والعرق يتصبب من جبينه. هممت ان اركض واضمه اليّ مودعاً. لكني لم افعل، وما زلت كلما تذكرت ذلك اليوم اشعر بالحسرة والندم.

ما حل بجوري بعد ١٩٤٨؟ هل انتقل الى بلدي التي اصبحت "اسرائيل"؟ هل هاجر الى اميركا؟ هل ما يزال في العراق؟ هل ما زال على قيد الحياة؟ اذكر انه في عطلة الربيع في السنة الاخيرة قرر زيارة تل ابيب بدل الذهاب الى بغداد، كما كانت عادته في العطل المدرسية. وعندما عاد حدّثنا بحماس عن النهضة المسرحية في تل ابيب وعن الروايات التي شاهدها هناك. وكان حديثه خالياً من اي محتوى سياسي. تمنى لو تسنح له الفرصة بان يقيم في فلسطين وان يكون قريبا منا.



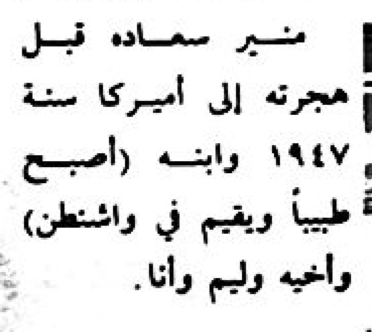
ساحة البرج في أواخر الثلاثينات.

أنا ومنير رمضان مع المستر مطران أمام تومسون هول (لا اذكر اسم الواقف خلفنا).





منير سعاده قبل هجرته إلى أميركا سنة ١٩٤٧ وابنه (أصبح طبيباً ويقيم في واشنطن) وأخيه وليم وأنا.





الترام في رأس بيروت بالقرب من الجامعة الأميركية في الثلاثينات.



السنة الاعدادية الثالثة (١٩٤١ - ١٩٤٢) مع مدرّسنا في مادة الطبيعيات الاستاذ حسن حسن الواقف الثاني من اليسار والى يمينه محمود ابو الزلف (صاحب جريدة القدس). عمران في ركعته المفضلة بيني وبين طارق حوده.



السنة الاعدادية الثانية (١٩٤٠ - ١٩٤١). عمران يقف في وسط الصورة في الخندق المستعمل ملجأً ضد الغارات الجوية، والى جانبه صبحي قعوار ووراءه فؤاد نجار.

اسفل اليمين. مدرّسنا آنذاك منير بعلبكي.



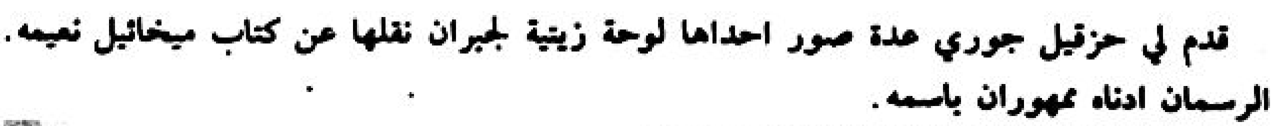


سنتي الأولى في الاعدادية (١٩٣٩ - ١٩٤٠). انا اختبيء وراء حمد آل خليفة الواقف في الوسط. في اقصى اليمين يقف فؤاد نجار، وعمران الثاني من اليسار يركع الى جانب فؤاد بلطجي.





كنا نعبّر عن صداقتنا بتبادل الصور الفوتوغرافية يلتقطها لنا المصور فاهيه في استوديو صغير في باب ادريس. الاولى من اسماعيل الانصاري وقدمها اليّ: «تذكار الجامعة في ٢٠/٢/٤٢.» والثانية من ميشيل خمّار: «تقدمة الى حضرة الفاضل هيشام شرابي من صداقة الجامعة الاميركية في ٢٦/١/٤٠.» والثالثة من اخيه اندريه خمّار: «اقدّم رسمي لصديقي الوفي هشام تذكار المحبة والصداقة، ٢٢/٢/٤٢.» والرابعة من يوسف دجاني: «أقدّم صورتي هذه للسيد هشام شرابي وذلك تذكار الصداقة الخالدة بيننا، ١٥/٤/٤٢.»



قدم لي حزقيل جوري عدة صور احداها لوحة زيتية لجبران نقلها عن كتاب ميخائيل نعيمه. الرسمان ادناه ممهوران باسمه.




الصورة الى اليسار التقطت على شاطىء عكا في صيف ١٩٤٥ (نهاية سنة السوفمر). كانت ليا فتاة يهودية تعمل سكرتيرة في الرِيفَاينري دعاها كامل مرّة للسباحة معنا في عطلة آخر الاسبوع، وصارت تأتي كل اسبوع حتى نهاية الصيف. كنا بعد السباحة نذهب الى بيت كامل ونرقص التانجو على انغام «الجرمافون» القديم. كانت ليا اول امرأة اضمها إلى صدري. علمتني خطوات الرقص، منها ومن حزقيل جوري تعلمت أن لا فرق بين البشر الا في احوالهم الاجتماعية وصفاتهم الذاتية. في نهاية الصيف عقدت خطبتها على زميل لها، ولم ارها بعد ذلك.

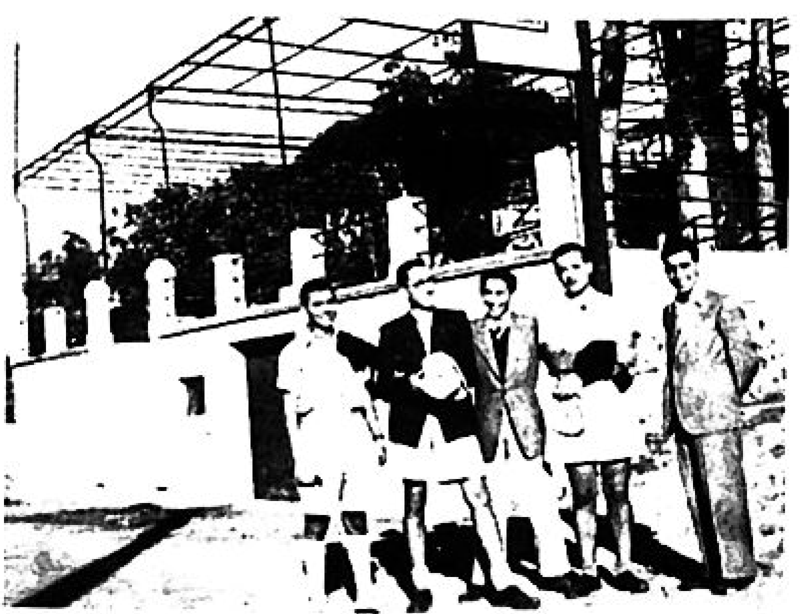
السنة الاعدادية الاخيرة مع موسى سليمان في فوّار انطلياس.



اسفل اليمين. بيت مري في بدء السنة الجامعية الاولى (١٩٤٣-١٩٤٤). الى يساري فؤاد واسامة ورشيد لاذقي.

في ربيع ١٩٤٦ زارني في الجامعة كامل واخيه اكرم.





٥



# ١

اصعب صفوف الدراسة الجامعية هو صف "الفرشمن"، ليس ذلك لصعوبة المواد او لكثرة المتطلبات المفروضة علينا بقدر ما هي بسبب الشعور بالوحدة في محيط يعج بالطلاب في سننا ولا نجد بينهم لأوّل وهلة صديقاً او وجها مألوفا نتعرف اليه. ومع ذلك فلم اجابه مثل هذه التجربة عند انتقالي الى صف الفرشمن في الجامعة الاميركية في بيروت خريف سنة ١٩٤٣. فالمدرسة الاستعدادية كانت جزء من الجامعة الاميركية وكان حرمها ملاصقاً لحرم الجامعة. كنا نمارس لعبة الفوتبول والباسكتبول في ملاعبها بالقرب من البحر ونستحم في مسبحها ونحضر حفلات قاعة الوست هول ونتمتع بالجلوس في مقهاها "الميلك بار". وكان هناك عدد من رفاقي الذين تخرجوا معي من الاستعدادية فانتقلنا سوية الى صف الفرشمن.

لا اذكر من المواد التي درستها في الفرشمن سوى مادة الدكتور انيس فريحه في تاريخ الادب العربي، لا بسبب محتوى المادة بل

بسبب شخصية انيس فريحة واسلوبه في التدريس. كان مختصاً بعلم الالسنيات. درس في اميركا والمانيا وعاد الى لبنان في اواخر الثلاثينات، والتحق بدائرة الادب العربي في الفترة التي التحق فيها بالجامعة شارل مالك وقسطنطين زريق، الاول لتدريس الفلسفة والثاني لتدريس التاريخ. كان انيس فريحة تجسيداً للاستاذ الشارد الذهن المأخوذ بموضوع اختصاصه، فيبدو وكأنه لا يعي ما يجري حوله. الا ان وراء هذا كانت تكمن شخصية قوية وعقل حاد لا يخفى عنه شيء. لا يهمه حضورنا في الصف او غيابنا عنه، فلم يكن يقرأ لائحة اسماء الطلاب في بداية محاضرته. اعلن في بداية الفصل ان هناك قاعدة واحدة علينا التمسك بها في صفه: عدم التثاؤب. وبالطبع كان اول ما فعله ثلاثة من الحرابيق، (وعلى رأسهم، كالعادة، رمزي صهيون) هو التثاؤب المطوّل في اللحظة التي بدأ الاستاذ فريحة محاضرته الاولى. حالا توقف عن الكلام والتفت اليهم بتؤدة واشار بيده قائلاً بالانكليزية: "انت وانت وانت: أوْت" وخرج الثلاثة كالنعاج دون ان ينبسوا بكلمة. بعد ذلك لم يتثاءب احد في الصنف طيلة الفصل.

ألّف انيس فريحة كتباً قرأت منها كتاباً واحداً بعد مرور عدة سنوات على تخرجي (وجدت نسخة منه صدفة في مكتبة خياط) وهو مجموعة من القصص الشعبية سردها انيس فريحة على ابنه الصغير رضا في سنوات طفولته بلغة شبه عامية ثم وضعها دون ان يغير في اسلوبها او تركيبها في كتاب بعنوان "إسمعْ يا رضا". وجدت الكتاب ساحراً في عفويته وفي لغته البسيطة النابضة بالحياة. كان حدثاً ليس على الصعيد الادبي وحسب بل وايضاً على الصعيد الفكري الثقافي. لاول مرة يتناول لغوي كبير القصة الشعبية ويكتبها بلغة تكاد ان تكون عامية في تلك الفترة التي كان موضوع «العامية»

و"الفصحى" مدار نقاش حاد في الاوساط الادبية انبرى له سعيد عقل ويوسف الخال. لست ادري إنْ كان هدف انيس فريحة في "اسمع يا رضا" تقديم مثلا حيا على الكتابة المُبسَّطة في لغة عربية قريبة الى العامية يمكن استعمالها بدلا من الفصحى المعقدة او انه قصد فقط نشر مجموعة القصص الشعبية حفاظاً عليها. لكن الغريب في الامر انه في الصف الذي درّسنا فيه اللغة العربية والادب العربي لم يتناول اطلاقاً موضوع العامية والقضايا المتفرعة عنها. بالعكس كان محافظاً في معالجته للغة وفي تحليله للادب العربي.

التقيت بأنيس فريحة قبل وفاته ببضع سنوات. كان جالساً فوق احد المقاعد بجانب الطريق وراء بناية المكتبة. ظننته يتمتع بمنظر صنين والبحر الممتد امامه. لما عرّفته بنفسي تذكرني حالا وطلب اليّ ان اجلس الى جانبه. كان يضع نظارات شمسية فلم انتبه الى انه لا يحول رأسه يمينا او يسارا عندما يتوجه اليّ بالكلام، اذ ظننت انه يركز نظره على منظر البحر امامه. وبعد ان سألني عن عملي واوضاعي في اميركا، حدثني عن حياة التقاعد وصعوبة العيش في بيروت وبخاصة بعد ان شح نظره ولم يعد بامكانه القراءة والكتابة. والتفت نحوي قائلاً: "والآن اكاد لا ارى شيئاً." بعد قليل جاء من يعود به الى البيت.

## ٢

لست ادري ما الذي دفعني الى الفلسفة. كنت اشعر بقلق داخلي وشوق عميق الى الخروج مما كنت فيه من "الضلال" والتخبط الفكري. فوضعت كل الاعتبارات العملية جانباً، وقررت التخصص

في الفلسفة. ولم اخرج عن هذا الخط الا بعد حصولي على الماجستير في الفلسفة من جامعة شيكاغو سنة ١٩٤٨، حين ادركت اني سأصبح فيلسوفا محترفا ان لم اغير موضوع اختصاصي. وفي اخر لحظة قررت بمساعدة استاذي الالماني ارنولد برجشترسر، الالتحاق بقسم "تاريخ الحضارات" حيث اتممت دراستي للدكتوراه في سنة ١٩٥٣. الا اني لم اندم يوماً على دراسة الفلسفة، فقد امدتني بقاعدة فكرية واسعة ومكنتني من تفهم القضايا المعرفية والمنهجية التي جابهتها فيما بعد في عملية التحليل الاجتماعي والنقد الحضاري.

٣

تسلّمت، وانا اكتب هذه السطور، رسالة من محمود شريح ضمّنها صورة عن مقال كتبته في تلك الفترة من حياتي الجامعية وظهر في مجلة "العروة" التي كانت تصدرها جمعية العروة الوثقى في الجامعة. وكان يترأس تحرير "العروة" صديقي وزميلي في اللودج محسن مهدي (الذي لحق بي فيما بعد الى جامعة شيكاغو واصبح بعد تخرجه استاذاً في جامعة هارفرد، وما يزال). بين الاسماء الواردة في هيئة تحرير "العروة" ممدوحة السيد (تزوجت من رجل اعمال اميركي وتقيم حاليا في نيويورك)، وعمر السقاف (وزير الخارجية السعودية في الخمسينات)، وزياد الشواف، رفيقي ورفيق عمران في تومسون هول (التحق بالسلك الدبلوماسي السعودي).

عنوان المقال "طريق الوجوديين" ويتناول الفلسفة الوجودية كما تعرفت اليها من خلال كتابات كيركجارد وبردياييف ذات الاتجاه الديني (لم نكن قد اطلعنا بعد على كتابات هيدجر وسارتر وغيرهما

من الـوجوديـين الملحـدين). ينـطلق المقـال من مـوقف "الشـك" و"البلبلة الفكرية" التي كنت اعانيها الى ان يصل الى تحديد المدرسة الوجودية، "اذا صح لنا ان نستعمل هذا التعبير للاشارة الى هذا اللون من الفلسفة،" والى تفسير النظرة المنبثقة عنها "التي لا ترضى بالفلسفة كعلم منفصل عن حياة الانسان اليومية (وترفض) الالتجاء الى التجرد العقلي."

قرأت المقال بدهشة، كأني اقرأ بحثاً او دراسة لاحد طلابي المتفوقين. رغم الغموض الذي رافق بعض المفاهيم التي وردت فيه، عرض بوضـوح وبدقـة مؤثرة المصاعب الفكرية والتساؤلات التي حكمت تلك المرحلة من تكويني الذهني. ذكرني هذا المقال الاول بـالتركيـز الذي كنت (ومـا زلت) اضعه عـلى ضرورة ربط الفكـر بالممارسة اليومية، وتقززي من الافكار المجردة المنفصلة عن الواقع المعاش.

من هنا كان انجذابي نحو الفلسفة الوجودية (كيركجارد ونيتشه وسارتر) وفيما بعد، نحـو الفلسفة المـاركسية (مـاركس وانجلز، و "مـدرسـة فـرانكفـورت" والمـاركسيـين "الاوروبيـين": ادورنـو، ولوكاتش، وميرلو - بونتي، وهابرماس)، ونـظرية النقـد الحضاري (فرويد، لاكان، بارت، فوكو، دريدا).

وما ادهشني قرب اسلوبي في الكتابة آنذاك الى اسلوبي الحاضر في الكتابة، ليس فقط من حيث تركيب الجمل والتعابير اللغوية (وفي عادة استعمال القوسين للتفسير الجانبي) بل ايضاً من حيث "روح" اللغة والمفاهيم الاجنبية التي اخترقت كل مقطع من مقاطعه. مثلاً: "اقوى حالات الشك لا تتأتى عن الشـك الصميم بل عن البلبلة العقلية التي لا تستطيع الوصول حتى الى الشك. في البلبلة، في عدم المقدرة على اعطاء حكم بلا او بنعم، يثبت اليأس اقوى جذوره في

اعماق الشخصية. في هذه الحالة، لا تعي الشخصية بل تسير في ظلمات موحشة تتقاذفها اشباح هي من جبابرة العقل الانساني الذي، عندما يحلو له ان يتجبر، يتجبر عليه ابناؤه ـ اعداؤه الكامنون في اعماقه.»

«... اذا اخذنا المدرسة الوجودية ـ اذا صح لنا ان نستعمل هذا التعبير للاشارة الى هذا اللون من الفلسفة ـ وحاولنا ان نتفحص نظرتها بهذا الصدد لوجدناها واضحة وصريحة. فالنظرة الوجودية نظرة لا التباس فيها: هي في مبدئها الاساسي لا ترضى بالفلسفة كعلم منفصل عن حياة الانسان اليومية بشكل تكوّن منه دائرة منفصلة عن دوائر العالم والمعرفة. الفلسفة الحقة، في نظر الوجوديين، هي الفلسفة التي تتبلور في الوجود برفضها الالتجاء الى التجرد العقلي. الحياة هي مسرح الفلسفة، والفلسفة هدفها الحياة ـ والحياة والفلسفة يلتقيان كيانياً بشكل وجود (حي)، وجود انساني واعٍ.»

«الوجود الشخصي: الحقيقة الاولية التي على اساسها تتشكّل حياة الانسان. في ضوء هذه الحقيقة العلمية، هذه الحقيقة التي لا نحتاج الى «التفلسف» للوصول اليها، نستطيع ان نحرك خيوط الحياة التي نرى اننا خليقون بأن نحيا. وانا عندما اتكلم بصيغة الجمع لا اعني المجموع العددي ـ اذ ان الجمهور ابعد الموجودات عن عالم الشخصية ـ بل اعني الاشخاص، الافراد الذين يكوِّنون المجموع، اذ هم كأشخاص لا يكونون مجموعا الا بالمظهر السطحي. الكم الشخصي، والـ «انا» هو الـ «شخص» بأكلمه ـ الشخص بوحدته وباعماقه وبفهمه...»

## ٤

فجأة، في مطلع خريف ١٩٤٥، امتلأت الجامعة بالفتيات. رأيناهن يوم التسجيل. عشرات يقفن في صف طويل. يتضاحكن ويتحادثن بلغة لم نسمعها من قبل. وعلى عادته قال لبيب بيقين العارفين: "انهن روسيات." لكن سرعان ما اكتشفنا ان اللغة التي يتكلمن بها كانت البولونية، وانهن فتيات بولونيات جلبتهنّ الحكومة البولونية المؤقتة في لندن الى لبنان عن طريق ايران.

حتى ذلك الحين كان عدد الاناث في الجامعة لا يتعدّى نسبة العشرة بالمئة من مجموع الطلاب، وكنّ يتمتّعن بمركز متفوق علينا في ميزان القوى. كان الذي ينجح بيننا في اصطحاب زميلة من زميلاته في الصف الى الميلك بار او الى فيصل لتناول فنجان شاي او تدخين سيجارة لاكي سترايك معها، يُنظر اليه بغيرة واعجاب. واذا نجح باقناعها باصطحابه يوم السبت الى السينما لحضور حفلة بعد الظهر فهو دون جوان عصره بلا منازع. لذلك لم يكن مستغرباً عندما حطّ هذا العدد الغفير من البولونيات بيننا (وكثيرات بينهن كنّ على مستوى راقٍ من الجمال) ان يثير قلق (ان لم يكن ذعر) فتياتنا العربيّات، وان يؤدي الى تغيير جذري في تصرفهن نحونا. وبالفعل فقد اصبحت العلاقات بين الطلاب والطالبات منذ ذلك الحين اقرب الى العلاقات "الديمقراطية" مما كانت عليه في اي وقت سابق. وكانت اولى نتائج مجيء الفتيات الاجنبيات نشوء صداقات بين الجنسين، ولم يعد مشهد طالب وطالبة جالسين الى مائدة منعزلة في الميلك بار، او على مقعد بعيد من المقاعد المشرفة على البحر، يثير الانتباه الذي كان يثيره المشهد نفسه فيما مضى.

لمحتُها في صف برفسور روبرتس في التاريخ الاغريقي والذي

كان يُعقد في الطابق الاول من مبنى كولدج هول. دخلت مع رفيقتها وجلست دون تردد في مقعد امامي مباشرة. ترتدي فستاناً أبيض تُعقد أزراره من الخلف. عددتهم واحدا واحدا، ستة ازرار بيضاء كبيرة. كان في وجهها جمال طبيعي لكن قامتها كانت ملفتة للنظر: ممتلئة الجسم، ممشوقة القوام، طويلة الساقين، تسير بحرية ورشاقة. تطلّعت حولها بعد ان استقرت في مقعدها، ثم استدارت ملتفتة نحوي. حاولتُ الابتسام عندما التقت عيوننا لحظة سريعة، لكنها ارتدّت الى جلستها الطبيعية في مقعدها فتركتني موجها ابتسامتي الى شعرها المرسل على كتفيها. رأيت لبيب زوّيا يتابعنا بنظره، وكان جالساً بمحاذاتها. رفع حاجبيه الكثين وغمزني غمزة ذات معنى. ادرت نظري عنه واخذت اعدّ الازرار البيضاء الكبيرة ثانية واتأمل في شعرها وكتفيها. تأخر الاستاذ روبرتس عن موعد حضوره، وعلا الحديث بين الطلاب. تململتْ في مقعدها ووضعت ساقاً على ساق. وخيّل الي اني سمعت احتكاك كلسات النيلون التي احتوت ساقيها. شدت طرف فستانها بتأنٍ الى ما فوق ركبتيها واسندت ظهرها الى مقعدها.

عند انتهاء المحاضرة، جمعت كتبي استعداداً للنهوض وفجأة رأيت وجهها على بعد شبر او اقل من وجهي. تجمّدت في مقعدي. سألتني بلطف ودون تكلّف: "في اي بناية يُعقد صفّ البروفسور عيساوي؟"

استعدت هدوئي، واخبرتها بصوت رزين اني في طريقي الى صف عيساوي ويسعدني مرافقتها. بصمت سرت الى جانبها. كان صف عيساوي في البناية الصغيرة بالقرب من بوابة "الطبية" التي لا تبعد عن كولدج هول اكثر من مئتي متر. اخذت أبحث عن شيء ما

اقوله. شعرت بنسمة من هواء البحر المُشبّعة بعبير الصنوبر تلامس وجهي.

واخيراً اشرتُ الى البناية وقلت: "ها هي البناية."

قالت: "والصف، في اي طابق؟"

"الطابق الثاني، اول غرفة الى اليمين."

قالت: "ثانكيو،" وصعدت مسرعة على الدرج الذي عجّ بالطلاب والطالبات.

في قاعة الدراسة وجدتها جالسة في احد المقاعد الامامية. جلست في اول مقعد شاغر صادفني، وأنا اؤنب نفسي لعدم دعوتها لمرافقتي الى الميلك بار بعد انتهاء الدرس. حتماً سيدعوها لبيب او غيره من افراد صفّنا.

في اليوم التالي رأيتها جالسة في الميلك بار مع رفيقتها وقد جلس حولها عدد من الطلاب من صفنا، وكانوا يتنافسون في التحدّث اليها بصوت عالٍ يتخلله سرد النكات بإنكليزية مهلهلة وقهقهة عالية مستمرة. ولما رأتني لوّحت بيدها مسلّمة، ثم رأيتها تهمس في اذن رفيقتها التي رفعت رأسها وصوّبت نظرها الى مكان جلوسي. ثم قامت وتوجّهت نحوي وعلى وجهها ابتسامة مشرقة.

"أين كنت هذا الصباح؟ لم ارك في المحاضرة؟"

دعوتها الى الجلوس وقلبي يخفق لا خوفاً او حياءً بل لسروري البالغ لقدومها اليّ على مرأى من زملائي الذين كانوا يراقبون ما يجري بصمت وامتعاض واضح.

قلت وانا ادعوها الى الجلوس بجانبي: "تأخرتُ في السهر الليلة الماضية. لم استيقظ حتى العاشرة."

"في السهر؟ في السهر اين؟"

"كنت اطالع في غرفتي حتى ساعة متأخرة."

فابتسمت ثم تطلعت الى حيث جلست رفيقتها مع الطلاب الذين علت اصواتهم من جديد، وقالت: "هؤلاء الثلاثة زملاء لنا في الصف. أتعرفهم؟"

"اعرفهم واحدا واحدا."

"لماذا يتحدثون ويضحكون في الوقت نفسه، ولماذا يقاطع بعضهم بعضاً؟ اني أكاد لا افهم كلمة واحدة مما يقولون."

"انهم في حالة المرح الشديد. انهم لا يستطيعون تمالك انفسهم لجلوسهم معك انت ورفيقتك الجميلة."

قالت: "هاو سويت؟"

كانت تتكلم الانكليزية بطلاقة وبلكنة حلوة.

- اسمها هيلدا وكانت من لوفوف في بولونيا. طيلة معرفتي بها في بيروت حتى تخرجنا كانت تحلم بالعودة الى بولونيا. اخبرتني ان حياتها توقفت مُذ أجبرت على مغادرة بلادها. كانت كلما سمعت مقطوعة لشوبان انهمرت دموعها. في تلك الفترة عُرض في سينما الاوبرا في ساحة البرج فيلم اميركي يدور على حياة شوبان وموسيقاه بعنوان "A Song to Remember"، وذهبنا بعد ظهر يوم السبت لمشاهدته. خفت عليها من اثر الفيلم في نفسها. بكت طيلة فترة العرض، واستمرّت الدموع تنهمر من عينيها حتى بعد خروجنا من السينما.

## ٥

بعد انتهاء امتحانات فصل الخريف، قررنا ان نحتفل بتناول العشاء في مطعم الـ "لوكولوس" في الزيتونة. تناولنا وجبة ما زلت اذكر طعمها. طلبنا زجاجة نبيذ كسارة وشربنا معظمها قبل ان يأتي

الطعام. ضحكنا ملء قلبينا، وزاد من غبطتي رؤية هيلدا في حالة من المرح لم ارها في مثلها منذ تعرّفي اليها. كانت ترتدي فستانا ربيعياً أنيقاً وتضع احمر الشفاه (وكانت نادراً ما تستعمل مساحيق التجميل) وبدت جميلة جذابة الى ابعد حد. كانت علاقتنا ما زالت لا تتعدى مسك الايدي، والقبلات السريعة نسترقها في مشاويرنا على الروشة او في الاماكن النائية في حرم الجامعة. اصعب الامور علينا ان نخلو الى بعضنا بعضاً. كانت النظرات تتبعنا دائماً حتى في ظلمة السينما. وبما ان هيلدا كانت تكبرني بثلاث سنوات، فقد شعرتْ في باديء الامر ان لها اليد الطولى في علاقتنا. لكن الامور ما لبثت ان تغيرت ورست علاقتنا على المساواة.

بعد العشاء ذهبنا الى الكيت كات، وكنت قد ارتدته للمرة الاولى مع بعض الاصحاب في السنة الماضية، ويقع في الجهة المقابلة للمطعم. عبرنا الشارع ركضاً وهيلدا تضع ذراعها حول ذراعي. كان الروف الصيفي المطل مباشرة على البحر قد افتتح، وامتلأ بالموائد الصغيرة والاضواء الملونة التي تلألأ انعكاسها فوق صفحة البحر. قادنا النادل الى مائدة صغيرة بالقرب من البحر حيث يمكن مشاهدة المرفأ وأضواء اتية من ضواحي انطلياس والجبل، وحيث كنّا نسمع ارتطام الامواج بالصخور عندما يتوقف عزف الاوركسترا.

كان لحن الموسم في بيروت آنذاك تانجو "كارمن" من تلحين موسيقار لبناني من اصل ارمني يقيم في باريس. انه اللحن الذي كلما سمعت صداه يذكرني بهيلدا وبيروت وخياتي الجامعية. طلبنا ويسكي مع الصودا ثم رقصنا على لحن "كارمن" وشاركنا في الرقصات الاخرى الهادئة، ولم نعد الى مائدتنا الا عندما اخذت الاوركسترا تعزف الرومبا الصاخبة. بقينا حتى قاربت الساعة منتصف الليل عليّ ان اعود قبل ان تُغلق بوابة الجامعة الرئيسية في تمام الثانية

عشرة. اخذنا تاكسي انطلق بنا من الكورنيش الى رأس بيروت، حيث كانت تقيم هيلدا في بناية جديدة بالقرب من القنصلية التركية، ووصلت بوابة الجامعة في اللحظة التي كان الحارس يهم باغلاق الباب الخارجي.

## ٦

تزامنت هذه المرحلة السعيدة من حياتي مع المرحلة التي شهدَ فيها العالم افظع حرب في التاريخ. كانت هيلدا ترفض قراءة الصحف او التحدث عما كان يجري في اوروبا، وتغمض عينيها كلما ظهرت مناظر القتل والدمار على شاشة السينما.

لم تكن تكره الحرب وحسب، بل كانت تكره كل انواع العنف، ولا تستطيع تحمل مشاهد الخصام الذي كان ينشأ احياناً بين الطلبة، حتى لو اقتصر على مجرد الصياح والتهديد. واصرّت مرة في حينها دنيا على الخروج في منتصف الفيلم بسبب الضرب المبرح الذي الحقه بطل الفيلم بأحد اعدائه الشريرين وجعل المتفرجين يصفقون بسرور وحماس.

حدثتها ذات مرة ونحن جالسين في الميلك بار عن الحزب، فقالت بشيء من السخرية: "وتظن انك ستنقذ البشرية من شرورها؟" مما جعلني ألوذ بالصمت لفترة طويلة. كثيراً ما تستفزني عن قصد، وبعد ان تنجح تعود الى الابتسام والى مراضاتي بشتى الوسائل.

تعلمت منها اشياء كثيرة، مثل الرفق في معاملة الآخرين، والتكلم بصوت منخفض، ومحاولة تناول الطعام ببطء، والتمتع

بالموسيقى والمناظر الجميلة دون التعليق عليها. كانت هيلدا اول فتاة اجنبية تقوم بيني وبينها علاقة حميمة. جسدتْ لي كل ما كنا نسمع عنه حول الفتاة الاوروبية المتحررة.

## ٧

تـوقّفتُ عن الكتابـة لعدة ايـام كي أُنظِّمَ افكـاري واستعيد احداث تلك الفترة الحلوة من حياتي. اشعر اني استطيع الاستمرار في الكتابة عن علاقتي بهيلدا لأيام واسابيع بسبب الغبطة التي تغمرني بها هذه الذكريات. أجد نفسي في عودتي الى ذلك الماضي كمن قام بـزيـارة يصعب عليـه فضّهـا، فيختلق الاعـذار لتأجيـل مـوعـد الانصراف.

اتى فصل الربيع بسرعة، وفي الربيع تتجدّدالحياة في بيروت. يتوقف المطر ويتحول البرد الى دفء يسري في الجسد والروح معاً، فنخلع معاطف الشتاء الثقيلة ونرتدي ثياب الصيف وتمتلىء الايـام بالضوء والنسيم العطر. الاشياء كلها تبدو جديدة مجلوة، واضحـة الخطوط، ناصعة الالوان. في المساء، بعد يوم مليء بضوء الشمس وزرقة السماء، كنت عندما اجلس وحيداً، بعد العشاء، في الشرفة الواسعة في اللودج انظر الى البحر واستمع الى الموسيقى التي كان يحيى حمصي يلعبها على الجرمافون (بخاصة "سوناتا القمر") ويغمرني احساس بالغبطة والفرح الى حد كان يجعل الدمع يطفرُ من عينيّ.

في تلك الفترة كنت ما زلتُ نظامياً متشددا على نفسي. امارس امتناعاً عن اكثر ما كنت ارغب فيه لفترات زمنية احدّدها لنفسي، مثل ارتياد السينما وتدخينَ السجائر، واتبع نظاماً صارما موزعا بين

الدراسة والالعاب الرياضية فالجأ الى الفراش باكراً واستيقظ مع طلوع الشمس. واستمر على هذا المنوال حتى موعد الامتحانات الفصلية. وعندما يأتي الربيع اشعر بأني استحق كل ما نعمت به من سعادة وغبطة.

في تلك السنة اصبحت دراستي اكثر تركيزاً واتّسعت آفاق قراءاتي. كنت اقضي اوقاتا اطول في المكتبة المخصصة لدائرة الفلسفة. كان عدد الطلاب المتخصصين في الفلسفة لا يتعدى ستة اشخاص، فيهم لبيب وفؤاد وطالبتان احداهما من حلب (وكانت صديقة فايز) والاخرى من عائلة يونانية تقيم في بيروت. اما عدد الاساتذة فقد انخفض (بعد تعيين شارل مالك وزيراً مفوضاً الى واشنطن) الى استاذين، يساعدهما معيدان يحضّران لنيل شهادة ماجستير في الفلسفة، هما فايز صايغ (توفي في نيويورك ١٩٨٠) وماجد فخري (تقاعد عام ١٩٩٠، ويقيم الآن في واشنطن).

في ذلك السن لم اعرف الكثير عن الحب كمعظم افراد الجيل الذي انتميت اليه. كان الحب بالنسبة لنا موضوعاً روحياً يختلف بل يتناقض مع الحب الجنسي. وبقدر ما كان الحب عميقاً فهو سامياً على المشاعر والرغبات الجسدية. كان الحب الصادق عذرياً، والجنس ممارسة اخرى بعيدة عن الحب.

قلت لهيلدا ذات يوم ونحن نسير في الطريق خلف ملاعب التنس، اني احبها. (كنا نقرأ حياة كركجارد في ذلك الوقت وعلاقة الحب التي جمعته بريجينا اولسن). التفتت اليّ بدهشة، ثم امسكت بيدي وقبلت صفحتها دون ان تتفوّه بكلمة. منذ ذلك الوقت تطورت علاقتنا من علاقة صداقة الى علاقة حب.

## ٨

على هضبة تشرف على ملتقى البحر بمنطقة الرملة البيضاء، حيث يقوم اليوم اوتيل كارلتون، كان هنـاك بيت قديم ذو سقف قرميدي احمر حوّله صاحبه الى مقهى على النمط الاوروبي واسماه اوريـزون بلو، كنا نـرتـاده احيـانـاً لتنـاول الشـاي والاستماع الى اسطوانات الموسيقى اللاتينية. قبل التخرج قرر طلاب قسم الفلسفة اقامة حفلة صغيرة في الـ اوريزون بلو اشرف عليها فايـز صايـغ بصفته "الشابرون" علينا.

وصلنا انا وهيلدا في الخامسة مساء، وكان زملاؤنا وصديقاتهن يرقصون على انغام التانغو والفوكس تروت. طلبت هيلدا نبيذا احمر وقالت بمرح: "هيا نرقص". أسندت خدها الى خدي بشكل تلقائي ورقصنا بصمت. ثم رفعت رأسها فجأة وقالت مبتسمة: "لماذا لا تقبلني؟" ودون ان اجيب لمست خدّها بشفتي بسرعـة. نظرتْ اليّ ثـانية وقـالت بشيء من التهكم: "هل لـديـك قبلة اخرى اكثر حرارة؟"

ارتبكت، لم أدرِ ما اقول، وضقت لارتباكي. الا ان هيلدا بقيت على مرحها. امسكت بيدي وقادتني إلى المائدة وجلسنا نتحادث مع زملائنا وكأن شيئاً لم يكن.

في نهاية الاسبوع، وكان الجو حاراً رطباً. اقترحت هيلدا ان نستحم في البحر وكان مسبح الجامعة قد فتح للموسم. قلت لها ان مـاء البحر مـا زال بـارداً رغم حـرارة الجو، لكنهـا اصرت عـلى الذهاب.

"لنذهب الى مسبح رملي، لا الى مسبح الجامعة."

ذهبنا الى مسبح السان سيمون، وكان عدد السابحين فيه لا

يتجاوز اصابع اليد. خلعت ثيابي في الكابين المخصص للرجال، وجلست على الشاطىء انتظر هيلدا. وجاءت مرتدية مايوهاً أسودَ من قطعة واحدة زاد من نصاعة بياضها. بدت وهي تسير نحوي بقوامها الممشوق وساقيها المنسجمتين جميلة جذابة بشكل يلفت النظر. انها المرة الاولى التي اراها في المايوه. تمددت الى جانبي بصمت وعندما اشتدت حرارة الشمس سبحنا في الماء البارد الهادىء. اخذت ترشقني بالماء ثم خرجت تركض على الشاطىء الرملي وتدعوني الى اللحاق بها. كانت فرحة تضحك بملء قلبها، كأنها لا تعرف همّاً.

في التاكسي القديم الذي وجدناه امام المسبح جلست ملتصقة بي، واضعة يدها على ركبتي. ووضعت يدي فوق يدها.

قالت: "والى اين سنذهب الآن؟" كانت الساعة قد قاربت السابعة مساءً. لم افهم قصدها. في مثل هذا الوقت كنت دائماً اسير معها الى نزلها ثم استمر في طريقي الى اللودج.

قالت: "لا اريد العودة الى النزل."

"والى اين ترغبين الذهاب؟"

"لا ادري. الا تعرف مكانا جميلا نذهب اليه؟"

"يمكننا تناول ساندويش عند فيصل."

نظرت اليّ ثم قالت بصوت خافت: "لا بأس. كان يوماً جميلًا. واضافت: Let's call it a day."

اوصلتها الى النزل وسرت الى اللودج بقلب مثقل.

## ٩

اخيرا، وبعد حفلة التخرج، خلونا الى بعضنا بعضاً. لم

نذهب الى شقة صديق يقيم خارج الجامعة (لم يخطر ذلك على بالي!) او الى احد فنادق الجبل، بل ذهبنا في "شطحة" الى خلاء الطبيعة الواسعة. صعدنا الى ضهور الشوير في الباص الذي يغادر بيروت في الصباح ويعود بعد الظهر.

ترجلنا في نهاية الخط عند غابة بولونيا. كانت مقاهي الغابة مغلقة، فلم يبدأ موسم الصيف بعد. سرنا في الشارع العام الخالي كليا من المارة والسيارات الى ان وصلنا الى دكان جلس امامه صاحبه يدخن النارجلية. كان يراقبنا ونحن نسير نحوه. عندما اقتربنا وقف محيياً ودعانا الى تناول فنجان من القهوة. قلت له اننا نريد ان نتمشى في الغابة ونعود بعد ذلك لتناول القهوة. فأشار بيده الى طريق جانبية تتفرع عن الشارع العام وتنحدر بين اشجار الغابة وقال: "الطريق توصل الى فوق الخنشارة. المنظر يطل على الوادي وصنين. منظر جميل جداً."

سرنا في الطريق الضيق الى ان حجبتنا الاشجار. نظرت باتجاه الشارع العام فلم اتبين الا اشجار الغابة. كنا اخيراً وحيدين، لا عيون ترصدنا. التفتُ الى هيلدا والتفتتْ اليّ، وفي حركة واحدة تعانقنا عناقاً حاراً كأننا نلتقي بعد فراق طويل. سرنا يدا بيد وجلسنا فوق هضبة تشرف على الخنشارة وعين القبو وبسكنتا. احسست بفيض من السعادة يغمرني. لم ادر ماذا افعل. قبلتها على شفتيها وعلى عينيها وتلمست وجهها وصدرها بحرقة الضرير الذي لا يرى الا باصابع اليد.

لست ادري ما الذي توقّعتْه مني ان افعل. كان واضحاً انها تعرف اكثر مني. ولكن كان جهلي المطبق اكثر وضوحاً. كنت لا اعرف الا ما تعلمته بالحدس ومن خلال تبجحات الذكور الجهلة حولي امثال رمزي صهيون. فانتهى العناق المرتعش المحموم بسرعة.

(نبقى، نحن الذكور، على غطرستنا وجهلنا طيلة حياتنا، نحب ونتزوج ولا نعرف من الحب الا رعشتنا الانانية، غافلين عن القريب البعيد الذي بين ذراعينا).

انتبهت فجأة الى الصمت الذي كان يلف ما حولنا. جلسنا لا نتفوه بكلمة. سمعت صوت غصن يتكسر، كأنما تحت وطأة قدم. التفتُّ هيلدا الى مصدر الصوت. كان هناك حركة بين الحشائش في ظل الاشجار. قلت لها بصوت منخفض: "لا بد انه طير او ارنب." وفي تلك الفترة ادركت الخطر الذي وضعنا انفسنا فيه بالمجيء الى هذا المكان النائي.. وومضت في ذهني ابشع التصورات، وسرى خوف عميق في عروقي. الا ان هيلدا لم تعر الموضوع اهتماماً، وشدتني اليها قائلة بصوت طبيعي: " لا تأبه للامر."

تملكني الهلع. كنا في عالم، وانا الآن في عالم آخر هي لا تشعر به. انصبَّ تفكيري على ايجاد مخرج من الوضع الذي نحن فيه: ما هي اجدى الطرق للوصول الى الشارع العام. همست باذنها: "يجب ان نغادر حالا. في هذه اللحظة". اظهرتْ بعض الامتعاض، لكنها لما شاهدت ملامح الخوف على وجهي قالت: "اوكي." امسكتُ بيدها وتسلّقنا الهضبة بسرعة واخذنا نركض في القادومية المؤدية الى الشارع الرئيسي. وصلنا الى الشارع العام دون ان نلتقي باحد. شربنا فنجانا من القهوة مع صاحب الدكان ثم ركبنا الباص الى بيروت.

عدت الى لبنان بعد انتهاء الحرب الاهلية، وأول ما فعلته اني صعدت الى غابة بولونيا. كانت الشمس مشرقة والريح خفيفة تهب من جهة صنين، تماما كما كانت تهب في ذلك اليوم من ايام الربيع. لكن كل شيء في الغابة وحولها قد تغير. لم تعد غابة بل بلدة صغيرة انتشرت بيوتها بشكل عشوائي بين الاشجار التى ذُبلت او احترقت او

تحولت الى اغصان عارية. بحثت عن الدكان الذي تناولنا فيه القهوة فلم اجده. اما الطريق العام فلم يتغير كثيراً وامتلأ بالحفر وقامت على جانبيه محلات صغيرة لبيع الالبسة والحلويات، ومقهى صغير عند المفرق المؤدي الى المروج، حيث جلس جنود سوريون يحتسون القهوة بصمت.

## ١٠

في نهاية خريف ١٩٤٧ سافرت الى فلسطين ومنها الى الولايات المتحدة. كان وداعنا قصيراً. كانت حزينة صامتة. ها انا اغادر بيروت وهي ما زالت في غربتها. والآن يسير كل في طريقه. لكن طريقها كان مسدوداً، فهي لا تدري كيف ومتى ستعود الى وطنها. اما طريقي فكان مفتوحاً. منذ اتخاذي القرار بتكملة دراستي في اميركا واستلامي القبول من جامعة شيكاغو وانا اسكن المستقبل الذي كنت الآن على عتبته. ودعتها عند محطة جنبلاط بالقرب من النزل الجديد الذي انتقلت اليه مع زميلاتها. عند مجيء الترام قبلتها على خدها بسرعة. ناولتني علبة صغيرة احاط بها رباط حريري.

"هدية صغيرة ستبقى معك طويلاً."

بقيتُ في مكانها والترام يبتعد بي عنها. لوحت لها بيدي ثم جلستُ في مقعد منعزل وفتحتُ الهدية. كانت بطاقات "كارت فيزيت" طبع عليها اسمي بالانكليزية بأحرف نافرة على كرتون من النوع الفاخر. بعد بضعة ايام كنت في القدس مع فايز صايغ نتمم معاملات السفر الى اميركا.





التقطتُ هذه الصور الثلاث لهيلدا أثناء رحلتنا إلى غابة بولونيا في ضهور الشوير في ربيع ١٩٤٧.



If you want to
know how I look
when I am happy,
just look at this picture
H.
16. VIII ١٩٤٧ - ٩٠٠ p.m. Academy

على ظهر صورة تظهر فيها سوياً كتبت هيلدا هذه الكلمات: «إذا أردت أن تعرف كيف أبدو عندما اكون سعيدة، فما عليك الا ان تنظر الى هذه الصورة. هـ. في ١٩٤٧/٨/١٦».

عدد «العروة» الصادر في نيسان ١٩٤٧.




فهرس «العروة» نيسان ١٩٤٧.

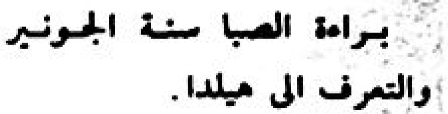


فهرس



طبع في «دار الأحد» — بيروت ـ لبنان





براءة الصبا سنة الجونير والتعرف الى هيلدا.

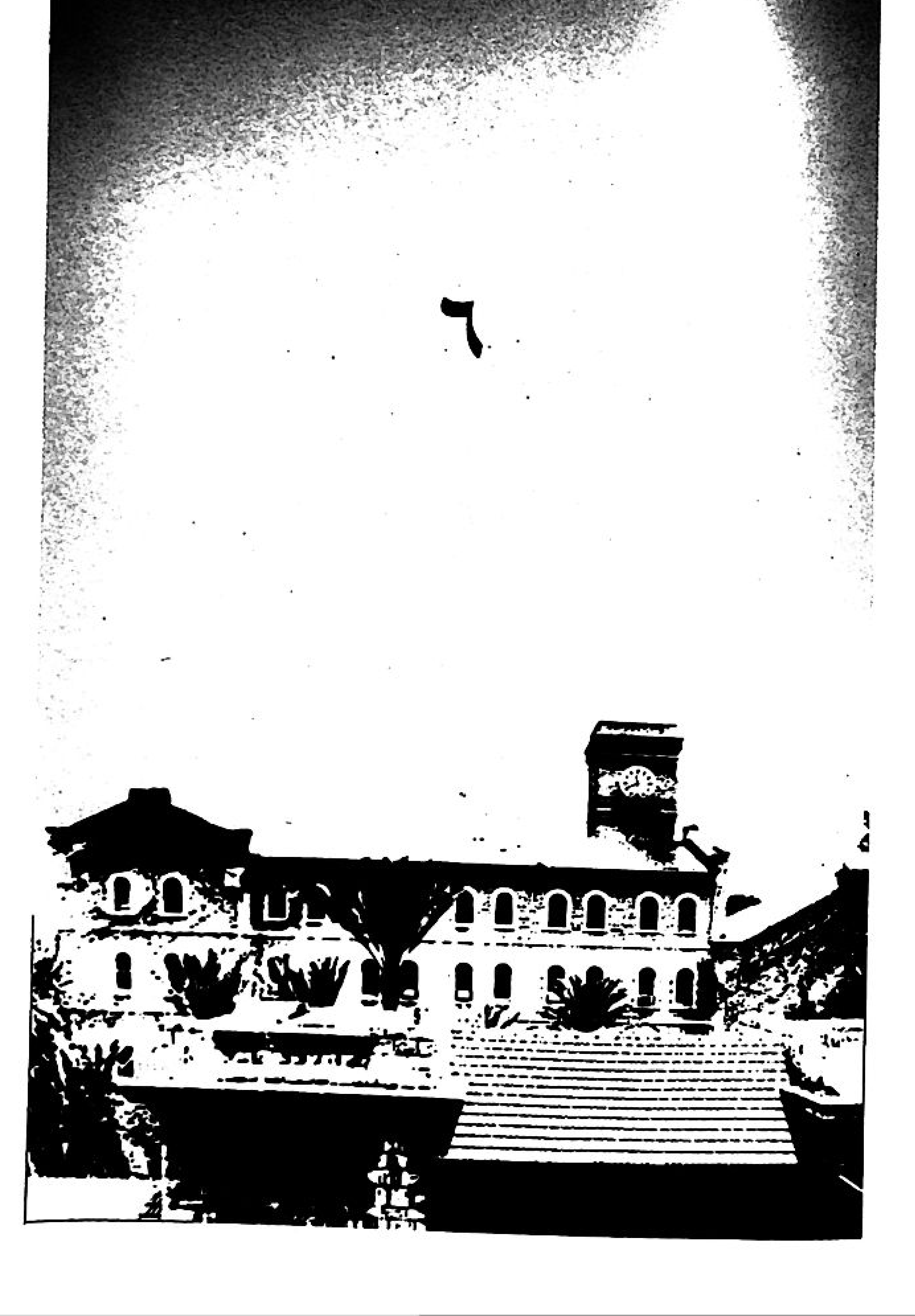


اعلاه الى اليسار. اللودج والشرفة المطلة على البحر. الغرفة التي شاركني فيها محسن مهدي في الطابق الثاني الى اليمين.

كولدج هول من ملعب الفوتبول، سنة ١٩٤٦.

محسن مهدي الى يساري والى يميني ي.س. بعد حفلة التخرج، حزيران ١٩٤٧.




٦

# ١

كانت المكتبة الخاصة بقسم الفلسفة تقع في الطابق الثاني من كولدج هول، في الجهة المقابلة لقاعة المطالعة والمكتبة العامة. كنت اذهب الى مكتبة الفلسفة بعد الظهر عندما تكون خالية تماما من الطلاب. فافتح النافذة المطلة على البحر واجلس الى مقعد مريح واقرأ في وحدة تامة الى ان يغلبني التعب او يأتي صديق فأقوم معه الى مطعم فيصل لاحتساء فنجان من القهوة والتحدث الى من نجده هناك من اصدقاء.

كان على حائط غرفة المطالعة صور لكبار الفلاسفة: سقراط وارسطو وكانت وهيجل. وفي زاوية من الحائط المقابل هناك صور فوتوغرافية وحيدة لرجل في الاربعينات من عمره اسود الشعر ثاقب النظر، لم اكن اعرف من هو. وتخرجت من الجامعة دون ان اعرف هويته. ولم اكتشفها الا بعد مرور عدة سنين عندما رأيت الصورة ذاتها في كتاب حول الفلسفة الاوروبية الحديثة، كانت صورة الفيلسوف الالماني

مارتن هايدجر. كان هايدجر يدرس الفلسفة في جامعة هايدلبرج عندما التحق بها شارل مالك تلميذا زائرا لسنة واحدة قبل الحرب العالمية الثانية. والغريب ان مالك لم يذكر اسم هايدجر اطلاقا اثناء تتلمذنا عليه. كان اسم كيركجارد (الذي كان له اثرٌ كبيرٌ في فلسفة هايدجر) هو الذي يتردد على لسانه. سألت شارل مالك مرة في اوائل الستينات (وكان عندئذ استاذا زائرا في احدى جامعات واشنطن بعد انتهاء مدة رئاسته للجمعية العمومية في الامم المتحدة) عن هايدجر ولقائه معه في هايدلبرج. قال انه لم يتعرف اليه جيدا على صعيد شخصي لكنه حضر بعض محاضراته. وكان واضحاً انه لم يقرأ هايدجر قراءة عميقة، بما فيها "الزمن والوجود"، الذي لم يكن قد ترجم الى الانكليزية بعد. والغريب انّ مالك رغم فضوله الفكري كان محدود المطالعة ولم يقرأ طيلة السنوات التي عرفته فيها (اي منذ صف السوفمر حتى السنوات الاخيرة قبل وفاته) الا ما يعد على اصابع اليد من الكتب. كل اسماء الكتب والمفكرين التي سمعته يذكرها كانت تلك التي رددها علينا ايام الدراسة، وهو في الثلاثينات من عمره.

درست على مالك فقط في صف السوفمر وفي الفصل الاول من صف الجونير. كانت "مادة تاريخ" الفلسفة احدى المواد الاجبارية على كافة طلبة كلية الآداب والعلوم في صف السوفمر، وتُدرّس في شِعَبٍ مختلفة يترأس كل منها استاذ او احد طلاب الماجستير في القسم (آنذاك اثنان هما ماجد فخري وفايز صايغ). وكانت الشُعَبُ تجتمع مرة في الاسبوع في القاعة الكبرى في وست هول لسماع محاضرة يلقيها شارل مالك في الموضوع المعيّن لذلك الاسبوع. كان لمالك حضور طاغ في الخطابة وتأثير بالغ على مستمعيه. وكان لمظهره دور كبير في ذلك، فقد كان ضخم الجثة، منفوش الشعر، جهوري الصوت، وكان من انصار

الفلسفة المثالية والمؤمنين بالقيم العليا: بالعقل، والحرية، وقيمة الانسان. لكنه رغم اشادته بالحوار الحر كان سلطوياً في ممارساته الفكرية لا يقبل الاختلاف او المعارضة. لم ادرك آنذاك طبيعة هذا التناقض فيه، ولم ار ما توضح لي فيما بعد، وهو ان الحقيقة الفلسفية الكلية التي كان يتكلم باسمها، كانت "حقيقة" معتقداته الذاتية، والتي فرقت في ما بيننا مع مرور الزمن.

## ٢

حينما اعود بذاكرتي الى شارل مالك اتصوره النموذج الكامل للشخصية الابوية التي وضعتها في كتابي "النظام الابوي". انه التجسيد الكلي لما قصدته بمقولة "الابوية المستحدثة" التي تحدد التناقض القائم في جوف الشخصية بين النظام الابوي والحداثة.

كان اسلوبه في الحديث ساحراً. ينتقي كلماته بدقة (إنّ بالعربية او الانكليزية) ويتكلم بوضوح ويجمل كاملة وبثقة كلية (في اي موضوع)، فلا يسع سامعه الا ان يُصغي اليه بدهشة وانتباه، وان لم يفهم كل ما يقوله. كان صوته يصدر من اعماق صدره، يعلو وينخفض بشكل مسرحي، مليئاً بالحرارة والايمان. من هنا مقدرته الهائلة على جعل المستمع "يرى" و"يحس" ما يصف او يقول. اذكر تمثّله لقراءته الاولى، والدموع، كما قال، تجري من عينيه، لمقال برتراند رسل "صلاة رجل حر". هرعت بعد الصف الى المكتبة وقرأت المقال، وصدى كلمات مالك يتردّد في ذهني. شعرت كأني لم أقرأ نصاً واتفهمه كما قرأت ذلك النص وتفهمته. قرأته من خلال الدموع التي اغرورقت فيها عيناي. اصبحت الفلسفة موضوع اهتمامي الاول بتأثير شارل مالك.

من كان يستطيع السماع الى مالك يتحدث عن الفلسفة الاغريقية، عن سقراط وافلاطون وارسطو دون ان يقع في حب الاغريق والفلسفة الاغريقية! توقف مرة في احدى محاضراته ليصف سقراط كما يتصوره في شكله، في عدم اكتراثه بمظهره ولباسه، "في الدودة الوحيدة في امعائه بسبب اهماله لما كان يتناوله من طعام"، وسجنه، والحكم عليه بالموت، وكلامه الى تلامذته قبل تناول السمّ. كان الطلبة يصغون اليه كما كانوا لا يصغون الى أي استاذ آخر، بلذة واهتمام كما لو انهم يشاهدون رواية مسرحية مثيرة.

هو الذي ادخل في حياتنا مفكرين ونصوصاً فلسفية لم يسمع بها احد في الاوساط الفكرية في المشرق العربي حتى ذلك الحين. وبالاضافة الى الفلاسفة الاغريق توما الاكويني. هو الذي عرفنا بدوستويوفسكي وكيركجارد. ما زلت كلما قرأت دوستويوفسكي او كيركجارد اسمع صوت مالك يتحدث عنهما.

اسلوبه في التدريس كان يختلف عن اسلوبه في الخطابة. في الخطابة يعتمد في اغلب الاحيان نصاً مكتوباً يقرأه بدقة. اما في التدريس فكان يأتي الى الصف دون اعداد. فيفتتح الدرس بالطلب الى احد الطلاب بأن يقرأ في النص المحدد لذلك اليوم. وعندما ينتهي الطالب من القراءة ينظر مالك الى الطلبة امامه ويطرح سؤالا لا يوجهه الى احد بالخصوص، فيرفع الطلبة ايديهم للاجابة. واذا رضي باجوبتهم، اثنى عليهم، بتهكم رقيق. وان لم يرض انّبهم. وكان احياناً، وهو يجيب على السؤال الذي طرحه، يخطر بباله موضوع لا علاقة له بالموضوع قيد البحث، وينتقل اليه، ويتكلم بحرارة وحماس حتى نهاية المحاضرة.

دمغ شارل مالك دائرة الفلسفة بمعتقداته الفلسفية الخاصة التي قامت على ارسطو وتوما الاكويني وعلى الميتافيزيقا اليونانية ولاهوت العصور الوسطى. كان يؤمن بحقيقة ازلية شاملة تنبع من الفلسفة والدين، ويرفض كل انواع الفلسفة الشكوكية او الوضعية او المادية. وكان اعتقاده جازماً ان التراث الغربي القائم على الفكر اليوناني والمسيحية هو اعلى ما توصلت اليه الحضارة الانسانية، وان الحضارات الاخرى، بما فيها الحضارة العربية الاسلامية، حضارات مختلفة، دون مستوى الحضارة الغربية. انعكس موقفه هذا على الصعيد السياسي في نزعة سياسية محافظة جعلته يعادي الحركات اليسارية والتقدمية وعلى رأسها الشيوعية. ووقف ابان الحرب الاهلية اللبنانية الى جانب القوى الطائفية الاشد رجعية. وفي اميركا، منذ بداية حياته السياسية عندما عُيِّنَ سفيرا للبنان في واشنطن ولدى الامم المتحدة قامت شهرته على عدائه للشيوعية والاتحاد السوفياتي ودعمه اللامشروط للغرب والتراث المسيحي مما اضفى عليه في فترة الخمسينات (اثناء تفشي الحركة المكارثية المناهضة لليسار والشيوعية) مركزاً مميزا في الاوساط المحافظة واليمينية والدينية المتطرفة. كانت الدعوات تنهال عليه من جميع انحاء اميركا لالقاء الخطب ضد الشيوعية ولنصرة القيم المسيحية. وبعد اعتزاله العمل السياسي سنة ١٩٦٠ تعاقد مع احد دور النشر الكبرى لنشر الكتب التي كان يزمع على كتابتها، الا انه لم يصدر عنه الا كتاب واحد بعد مرور فترة طويلة من الزمن، وهو عبارة عن مجموعة من الخطب والمقالات التي كان قد القاها في مناسبات مختلفة، وكلها على نمط واحد يكاد لا يختلف في الشكل والمضمون. وفي بيروت، بعد عودته الى منصبه في الجامعة الاميركية، تعاقد مع دار النهار للنشر لنشر اعماله الكاملة. وعند وفاته لم يكن قد صدر منها الا كتاب واحد بعنوان: "المقدمة: القسم الاول".

## ٣

كان اصدقاء شارل مالك وتلامذته ينتظرون اليوم الذي سيبدأ فيه بالكتابة والتأليف. الا انه، عدا عن مجموعة الخطب والمقالات باللغة الانكليزية (والتي يجب اعتبارها سياسية واعلامية) لم يكتب الا كتابا واحدا في الفلسفة، وهو "المقدمة: القسم الاول".

غير انه كتاب غريب وجميل، لا مثيل له بنظري في اصالته بين الكتب العربية الحديثة الا كتابان: كتاب ميخائيل نعيمة "الغربال" (١٩٢٢) وكتاب انطون سعاده "نشوء الامم" (١٩٣٨). يتضمن هذا الكتاب كل الافكار التي سمعت شارل مالك يتحدث فيها طيلة معرفتي الطويلة به، منذ ايام التدريس في الجامعة الاميركية وحتى الثمانينات. إنه في هذه "المقدمة" لا يسجل افكاره ومعتقداته وحسب بل يكشف ايضاً (دون قصد) عن مطامحه (التي لم تتحقق) وعن مخاوفه (التي لا يريد الاعتراف بها) وايضاً عن مشاعر التعالي (التي يحاول اخفاءها). انه يقول لنا ما معناه: ليس هذا الكتاب الا جزء صغير مما املك من علم ومعرفة. اما الباقي فسيأتي عما قريب. صدرت "المقدمة" وهو في الحادية والسبعين من عمره.

كان دائماً يؤجل الامور. كان الحاضر، اللحظة الآنية، مجرد نقطة عبور بالنسبة له. ودائماً ينهي حديثه بالقول: "لازم نجلس جلسة طويلة، طويلة، عن قريب". خلال السنين اجتمعنا به ـ نحن تلامذته واصدقاؤه ـ في بيروت (في الجامعة الاميركية) وفي نيويورك (في الامم المتحدة) وفي واشنطن (في السفارة اللبنانية) وفي الرابية (في منزله بالقرب من انطلياس) وفي مناسبات عدة مختلفة. كانت كل جلسة تؤجَّل الى

جلسة قادمة "طويلة، طويلة" سنروي فيها عطشنا. توفي ولم نجلس جلستنا "الطويلة". ولو عاش الف سنة لما كنا جلسناها. عاش حياته هرباً نحو مستقبل وهمي.

تحملُ "المقدمة: القسم الاول" افكارا ومفاهيم حديثة ليس للعربية الفصحى والفكر العربي المعاصر عهدٌ بها (على نمط الافكار والمفاهيم التي استعملها نعيمة في كتابه النقدي وتلك التي تناولها سعادة في كتابه السوسيولوجي). انها مكتوبة باللهجة ذاتها التي كان يتحدث فيها الينا: لهجة محبة متواضعة احيانا ووعظية سلطوية احيانا اخرى، لكنها ابوية دائماً.

لماذا اختار مالك تسمية هذا الكتاب بـ "المقدمة" وهو اكثر بكثير من مقدمة، ولماذا "القسم الاول" فقط؟ (هل كان نموذجه كتاب هايدجر "الوجود والزمان"، الذي صدر منه "القسم الاول" ولم يصدر القسم الثاني منه اطلاقا؟).

لست ادري اذا كان هناك قسم ثانٍ للمقدمة، او اذا كانت "الاثار العربية الكاملة" جاهزة بالفعل. انها لم تنشر حتى هذا التاريخ.

وما هي هذه الاثار الكاملة التي تعدذها المقدمة في ستة عشر مجلدا؟ (بالاضافة الى المجلدين المخصصين للمقدمة والمجلد المخصص للمراجع). هل هي مجموعة مؤلفاته "المنشورة" و"غير المنشورة" باللغتين العربية والانكليزية؟ ام هل هي مؤلفات جديدة كان ينوي كتابتها؟.

يقول في مقدمة "المقدمة": "ان تعميم الحاضر لآثاري الكاملة باللغة العربية يشمل، بعد المجلدين الاولين، وهما المقدمة، بقسميها، تسعة عشر مجلداً." ويحدد مواضيع هذه المجلدات كالتالي: "اولا، العلم (مجلد واحد)، ثانيا، الفلسفة (اربعة مجلدات: مدخل تمهيدي، الميتافيزيق والاخلاق، بعض المفكرين القِمَم في التاريخ، الحرية

والانسان). ثالثاً، السياسة (اربعة مجلدات: الشرق الاوسط، الامم المتحدة، الصراع الايديويوجي العالمي، مجد الغرب وانحطاطه). رابعا، لبنان (مجلدان: القضية اللبنانية، وثائق أوليّة). خامسا، الايمان (خمسة مجلدات: في الكتاب المقدس، في الحياة الروحية الشخصية، في الحياة الليتورجية، في الحركة المسكونية، الصراع في المسيح مع الشيطان). بالاضافة الى ذلك، مجلد يحتوي "الوف المراجع" في اللغات العربية والانكليزية والفرنسية والالمانية، "وربما في لغات اخرى" ايضاً.

في "القسم الاول" من المقدمة يعالج مالك ما يدعوه تقديمه "الأولي في الشؤون الاخيرة" ويعلن انه ينوي، بعد ان يشرح اوجه "تطوره الكياني" و"الفلسفة الظهورية" (Phenomenology) ان ينتقل "تباعاً وبشكل تمهيدي محض" الى تفصيل نظرته "الى الرياضيات، والعلوم، والكوزمولوجية، والحلولية، والمثالية"، ثم الى "مراتب الوجود الثماني"، ومشكلة "الانتقال الكياني"، و"المرتبة الاخيرة الصارمة" وهي مرتبة "الخروج الكياني" من "الذات" الى "الغير". ويقول ان هدفه الاول والاخير في كل هذه الكتابات هو: "الحقيقة الحق المعطاة في حد ذاتها، الحقيقة الجزئية والكلية، الحسية والعقلية، العادية والروحية، الناقصة المحدودة، والكاملة اللا محدودة، المخلوقة والخلاّقة الزائلة والباقية".

بعد كل ذلك كان ينوي "التوقف عند بعض المعطيات للدخول فيها الى الصميم". ومن هذه المعطيات "الانسان، الحرية، العقل، الروح، الطبيعة، الخلق، الوجود، الكينونة، التراث، الجذور، التراث العقلاني، التراث الابراهيمي، معنى التاريخ، وحدة التاريخ، غاية الحياة وغاياتها، قِمَم الفكر، العيش في القمم مع أهل القمم، مشكلة الـ"من" والـ"اين""

## ٤

من لا يعرف شارل مالك قد يظن، عند قراءة لائحة المواضيع التي ينوي معالجتها في "الاثار الكاملة"، انه يمزح او انه يهذي. الا ان هذا هو اسلوبه في الكلام والتعبير. يضع عناوين الافكار ويؤجّل بحثها (كالكتب التي نضعها جانباً لنقرأها في عطلة الصيف، ويأتي الصيف ويذهب ولا نقرأ منها الا عناوينها). وتصبح العناوين شعارات، والاسماء نصوص، والنصوص مجرد اختزال لفظي.

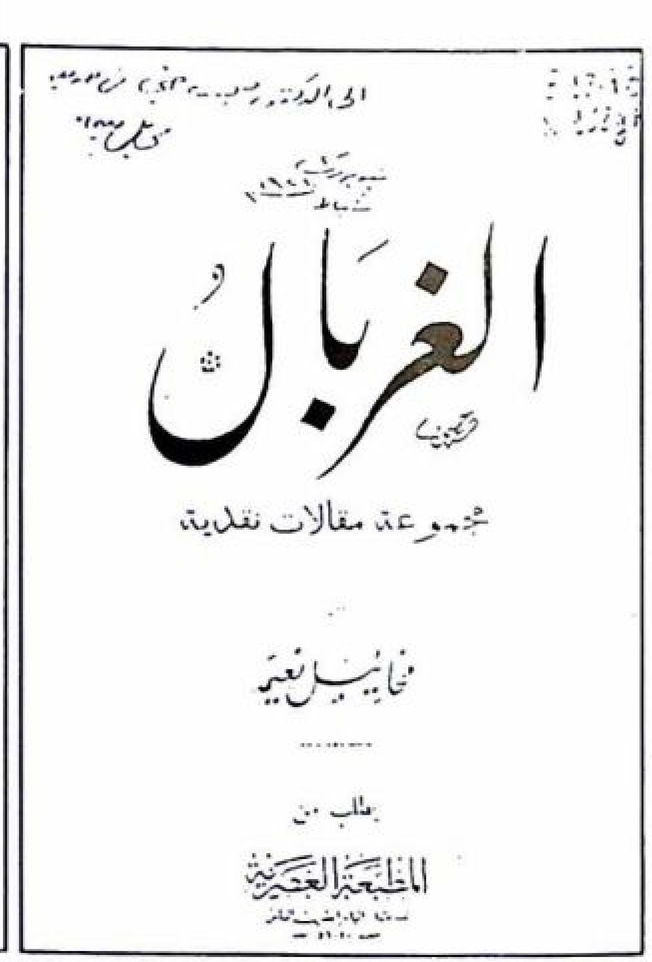
كان مالك كما ذكرت في الحادية والسبعين من عمره عندما وضع "المقدمة". ترى، الم يكن يدرك تمام الادراك انه لن يتمكن، حتى ولو قصد، من اتمام هذا المشروع الضخم؟ واذا كان الامر كذلك فلماذا يحدده بهذه الدقة وبهذه الضخامة؟ "بضعة عشر مجلدا!" (كان ميخائيل نعيمة في السبعين عندما اصدر "سبعون" في ثلاثة مجلدات، لكنه كان قد الّف حتى ذلك الحين فوق العشرين كتاباً). كان مالك ما زال يحلم بتحقيق الصورة التي تمثّلها لنفسه وتمثّلها له الآخرون: صورة الفيلسوف الكبير ذي الاعمال الفلسفية الكبيرة!

الكتابة والفكر يتطلّبان نوعا من التنسّك، من الوحدة (القاتلة احيانا) والعمل الشاق ساعات طويلة ضمن نظام يومي صارم. لكن مالك اختار نمطاً آخر من العيش عندما تخلى عن عمله الجامعي ودخل العمل السياسي، فقضى حياته في السعي وراء المركز والشهرة والثراء الشخصي. قد اكون مخطئاً في قولي انه اختار هذه الحياة الاخرى. ربما كان اختياره لها ارضاءً شعورياً او ارضاءً لزوجته، او بفعل القيم التي حكمت نشأته الفقيرة المغمورة، او ربما ظن ان باستطاعته النجاح في التوصل الى "اعلى المراكز" والحصول على المال، والبقاء في الوقت ذاته على ولائه للفكر والفلسفة. هنا، بنظري، تكمن مأساته "الكيانية"

ظل يحلم حياته بكاملها بالفلسفة والقيم الروحية، لكنه عاش حياة رجل الاعمال الليفانتي والسياسي المحترف. وهكذا عندما عاد الى بيروت في الستينات ليعاود التدريس في الجامعة، كان قد فقد المقدرة على الكتابة والفكر المتكامل، على الوحدة والنظام اللذين يتطلبهما الفكر والكتابة. بنى فيلاً فخمة في الرابية (على غرار بناية سفارة لبنان في واشنطن) واستمر في العيش على طريقة الاعيان والشخصيات الكبيرة.

لم تجمعني بشارل مالك صداقة بالمعنى الدقيق. فقد بقيت علاقتي به شبه ابوية. كان دائما بالنسبة لي "الدكتور مالك"، فلم ادعُهُ يوما باسمه الاول كما كان يدعوه اصدقاؤه. استمرت علاقتنا حتى اواخر الستينات، عندما تغيرت اتجاهاتي الفكرية جذرياً وتخليت عن افكاري ومعتقداتي السابقة ودخلت في عالم الفكر الرافض. لكن العلاقة بيننا رغم ذلك لم تنقطع. وعندما ذهبت استاذا زائراً الى الجامعة الاميركية سنة ١٩٧٠ - ١٩٧١، لم يتغير موقفه نحوي رغم انه احس بالهوة الفكرية التي اصبحت تفصل بيننا، فأصرّ عندما لم اجد مكتبا خاصا في الجامعة، على تجهيز مكتب لي الى جانب مكتبه في بلس هول. واستمر في دعوتي مع يوسف الخال وغيره من طلابه القدامى الى لقاءات حميمة في منزله في الرابية. ما بعّد بيننا بشكل نهائي كانت الحرب الاهلية وموقفه الطائفي وعدائه للفلسطينيين (بعد ان كان اكبر المناصرين للقضية الفلسطينية في الامم المتحدة). لم اره بعد ذلك الا نادراً. بعد عودتي من سنة قضيتها في بيروت سنة (١٩٧٤ - ١٩٧٥)، كان يحضر الى واشنطن بين الفترة والاخرى، لكنه لم يعد يتصل بي. رأيته آخر مرة في نادي الكوزموس حيث كان ينزل اثناء وجوده في العاصمة الاميركية، وذلك قبل وفاته بحوالي سنتين. كان شعره ما زال منفوشاً الا انه كان قد اصبح شائباً، وتجعّد وجهُه وفقد قوته وجماله.

توفي شارل مالك في الرابية، وفاة صعبة اليمة بعد مرض اقعده وأدى الى بتر ساقيه الى ما فوق الركبة بسبب مرض السكري، ففقد في آخر ايامه ما تبقى له من سيطرة على حياته.




الطبعة الأولى من «الغربال» قدّمها ميخائيل نعيمة إلى صديقه الدكتور فيليب حتّي، أستاذ التاريخ في جامعة برنستون ومنحها بدوره إلى مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت.

انطون سعاده

# نشوء الأمم

الكتاب الأول

بيروت

1938

أنهى سعاده كتابه «نشوء الأمم» في سجن القلعة في بيروت سنة ١٩٣٨ ونقّحه بعد عودته إلى بيروت سنة ١٩٤٧ وصدر في دمشق سنة ١٩٥١ في «طبعة منقّحة بقلم المؤلف.»

شارل مالك

الآثار العربية الكاملة

# المقدّمة

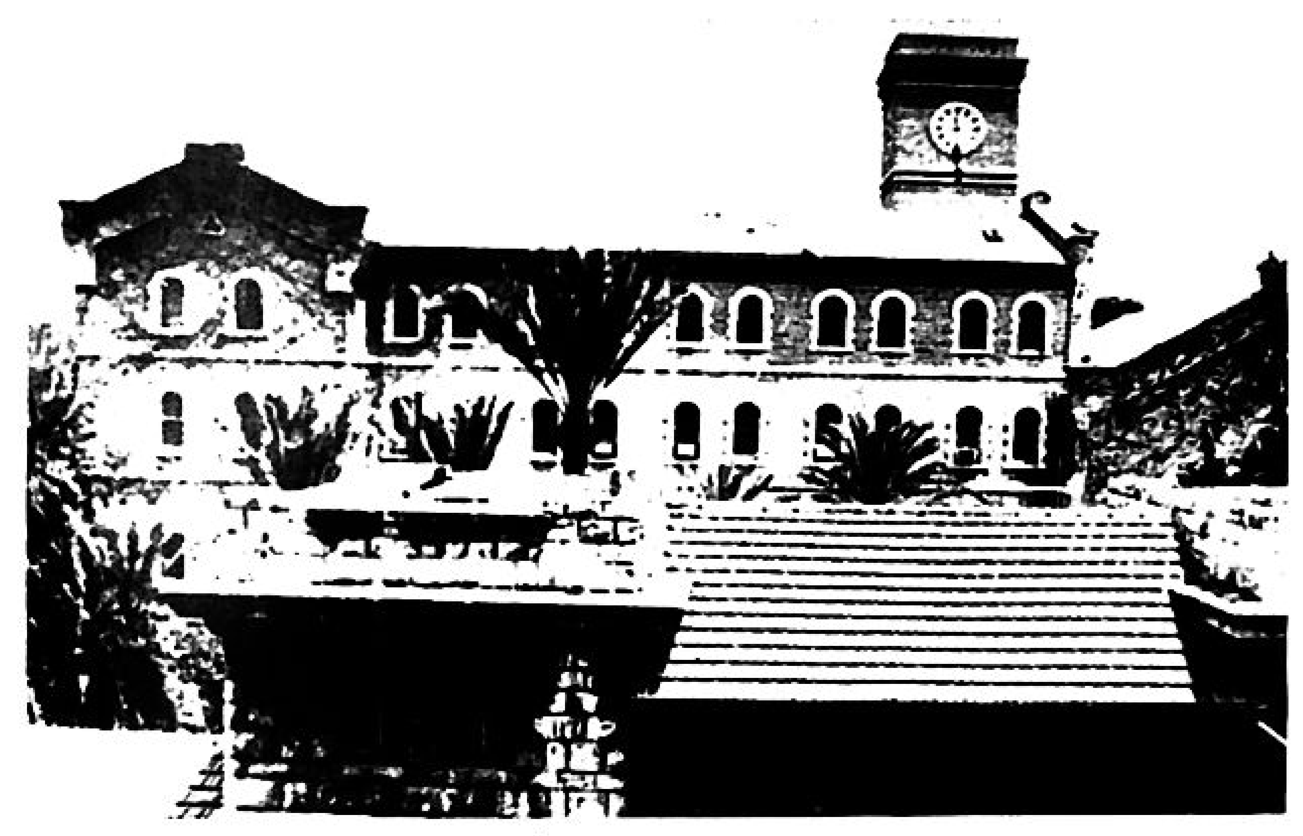
القسم الأول

المجلد الأول



دار النهار للنشر

«المقدمة» الكتاب الوحيد الذي صدر من «الآثار العربية الكاملة».


كولدج هول، الجامعة الأميركية.

شارل مالك سنة ١٩٤٥.



فسك هول وشارع بلس.



٧



# ١

في السنوات الاولى من حياتي الجامعية كان ميخائيل نعيمة بمنزلة معلّمي الروحي، إذ بدأ تغيّر في اتجاهاتي الفكرية بتأثير شارل مالك والتيارات الفكرية الجديدة التي تعرّضت لها في الجامعة. في مطلع عطلة صيف ١٩٤٥، بعد انهاء صف السوفمور، قررت كتابة مختصر لما كنت اؤمن به من افكار ومعتقدات، وذلك لعرضه على ميخائيل نعيمة في الزيارة التي كنا قررنا انا وفؤاد نجّار القيام بها اليه في بسكنتا مطلع اكتوبر قبل بدء الفصل الدراسي. واخترت عنوان ما كنت انوي كتابته قبل شروعي بالبحث: "نظرتي الى الحياة."

حال وصولي الى عكا، وبعد زيارة سريعة قمتُ بها الى يافا، نصبتُ خيمة فوق سطح بيت جدي. وضعت فيها كتبي واوراقي وكرسيين، احدهما كرسي شاطيء للتمدّد والاستراحة، والآخر للكتابة الى طاولة صغيرة ركزتها في مدخل الخيمة لاتمكّن من رؤية البحر اثناء الكتابة. كان يومي يبدأ في الثامنة صباحاً، حين يذهب

Refina

كامل واكرم الى عملهما في الريفاينري (مصفاة النفط في حيفا)، فأصعد الى الخيمة اطالع واكتب وافكر الى أن يحين موعد الغداء مع جدي. ثم أذهب الى غرفتي واستلقي على فراشي المحاذي للنافذة المطلّة على البحر واطالع قليلاً، واحيانا، عندما يجافيني النوم، اجلس في الفراش انظر الى البحر الفضيّ واتمتّع بدغدغة النسيم المثقل برائحة الملح على وجهي. واحياناً ارى مركباً شراعياً على مسافة قصيرة من الشاطىء الصخري متجهاً نحو ميناء عكا او في طريقه الى صور او صيدا، وقد عبق الريح في شراعه وهو يشق الماء.

في الثالثة بعد الظهر استمع الى نشرة اخبار لندن على راديو جدتي ثم اصعد الى خيمتي لاراجع ما كتبته قبل الظهر، واقرأ قليلاً الى ان اسمع صفير كامل من الشارع مُعْلناً عودته من الشغل، فأهرع اليه ونتوجه مباشرة الى قهوة حبيبو الواقعة بالقرب من سينما اللبابيدي حيث نجلس لساعة او ساعتين نحتسي الكازوز ونتحدث الى من نلتقيه من صيادي السمك ممن تعرفنا اليهم اثناء الصيد ونحن فوق الصخور. وعند المغيب، حين يخفّ الحر ويهب نسيم البحر، نتمشى بمحاذاة الشاطيء، ونأكل كعكاً بسمسم مع الصعتر، ونراقب الفتيات اللواتي كنا نعرفهن عن بعد، ونتبادل الحديث المتقطع معهن. كن يتمشين امامنا ويسترقن النظر الينا بين الفترة والاخرى ليتأكدن اننا ما زلنا نسير وراءهن، فيتضاحكن. وعندما نصل الى نهاية الشارع عند الثكنة العسكرية، حيث يقل عدد المتمشين، يقول كامل لـ "صديقته" بينهن ان هناك فيلماً جديداً للوريل وهاردي يعرض ذلك المساء في سينما اللبابيدي. فتتهامس الفتيات في ما بينهن وتقول صديقته: "يمكن ان نحضره، سنرى." ونفترق في حبور وفرح.

## ٢

في ذلك الوقت كان المستقبل هو المهيمن على حياتنا. كنا نعيش الحاضر، او اكثره، بانتظار المستقبل الذي ستتحقق فيه احلامنا. كان الحاضر فترة استراحة بين المراهقة التي نسعى الى تجاوزها باسرع ما أمكن و"الرجولة" التي مثّلت لنا بداية الحقيقة. هكذا هدرنا تلك المرحلة الجميلة من حياتنا دون ان نعيشها حقاً. اننا لا ندرك ذلك الا بعد ان يمضي الزمن ويغيب الحاضر. وهكذا في المرحلة الاخيرة من العمر لا يبقى من الحاضر الا هذا الماضي الذي نحنّ اليه. النهاية، عندما نصلها، دائماً تسترجع البداية. عند ذلك ندرك ان المستقبل الذي انتظرناه يوماً بعد يوم طيلة الحياة ليس الا هذا الماضي الذي استهلكناه بانتظار المستقبل.

لكن الغريب في الامر ان هذا الادراك لا يدوم، اذ لا تلبث هذه الافكار ان تتبدّد، فنرجع الى العيش اليومي وغربته، ويعود المستقبل يمتدّ أمامنا. وعندما يخطر الموت على بالنا نشيح بوجهنا عنه، ولا نتعرّف اليه، ونتناساه. وإنْ جابَهنا، فهو حدثٌ يصيب الاخرين فقط.

احاول ان اتمسّك بصحوة هذا الادراك، وان احدق بوجه الموت واتعرف على ملامحه. فأقول لنفسي كل صباح: "عشْ يومك بوعي. لا تنجرف في الروتين، لا تغمض عينيك. لا تهدر الوقت."

اذكّر نفسي بأن "الوعي" هو ان نرى ما حولنا ومن حولنا دون حاجز او قناع. ان نكون حاضرين لانفسنا وللعالم وللاخرين. ان نجعل العالم والآخرين حاضرين معنا ولنا.

كلما اسافر في رحلة بعيدة اتوق الى من تركت من احبائي، والوم نفسي على تقصيري في اظهار حبي لهم عندما اعـود اليهم، وكل مرة اتعهد بأن أغـير مسلكي لدى رجـوعي إليهم. وبعد ان ارجع، أنغمسُ في نمط عيشي القديم، وانجرف في الروتين اليومي المعهود.

اول من امس جاء لزيـارتي صديقي ألَنْ الـذي اعرفـه منذ الخمسينات عندما كان طالباً في احد اولى الصفوف التي درّستها في جامعة جورجتاون. انه الآن مريض بسرطان الرئة. نصحه الطبيب ان لا يبقى في البيت وان يجتمع قدر ما استطاع باصدقائه. تلفن في الصباح يسألني اذا كنت موجوداً في البيت. كان يعرف اني اقضي فترة قبل الظهر من كل يوم في عملي الخاص ولا اجتمع بأحد. لكنه يعرف اني سأرحبّ به، فدعوته الى الحضور. قلت في نفسّي سأراه لبضع دقائق ثم اعود الى عملي. كان قد فقـد معظم شعـر رأسه واصبح وجهه بلون الشمع الأصفر بسبب العلاج الكيماوي الـذي اعطي له. جلس يحدّثني عن الماضي ويذكّرني باحداث جرت لنا عبر السنين. تحدّث عن بيروت والجامعة الاميركية حيث مارس التدريس لبضع سنوات وعن اشخاص تعرّف اليهم هناك وبخاصة عن علاقته بأمرأة لبنانية احبها واحبته عن بعد ولم يبح لها بحبه. قال هذه المرة الاولى التي يتحدث فيها الى احد عن هذه الامور. كنت استمع اليه وانا استعيد في ذهني المهام التي كان عليّ القيام بها في ذلك الصباح، وافكر في الموضوع الذي كنت اكتب فيه. وفجأة انتبهت الى ما كان يقوله ألَنْ. انه يراجع احداث حياته امامي. يحدثني عن امـور لم يتحدث بها الى انسان من قبل. يفضي اليّ بما يحفظه في قلبـه من أسرار. كيف تنغلق حياتنا على نفسها فنصبح خارجها وخارج كل حياة اخرى مهما كانت قريبة الينا.

## ٣

ما يدهشني وما لا استطيع تفسيره، هو هذا الغياب الذي يؤلّف تفاصيل حياتي اليومية، هذا الضياع والسعي المستمر الى هذا الامر او ذاك. الايام تمضي دون ان أعيها. من بين جميع اصدقائي كان هناك شخص واحد يخرج عن هذه القاعدة، او خيّل اليّ انه يخرج عنها، وهو نبيل عوض. توفي هنا في واشنطن السنة الماضية. عرفته في صف الفرشمن، وكان رغم ذكائه كسولاً لا يهتم بالدراسة، فيحصل على ادنى العلامات في كلّ المواد. تركزت اهتماماته في الجامعة على المسرح والسينما ومحاولة اختراع ما لم يكن هو يعرف كيفيته او هدف استعماله. كان بطبيعته ذا نزعة دينية. وكثيراً ما شاهدته يقرأ الأناجيل لبضع دقائق ثم يضعها جانباً، ويجلس صامتاً. صدف مرة ان قرأ مجموعة قصص لتولستوي اهداها اليه احد اصدقائه بمناسبة عيد ميلاده، فأصبح تولستوي احد ابطاله الروحيين، ومن خلاله مال الى فلسفة غاندي، واصبحت نظرية اللاعنف معتقده في الحياة. تفهمت شخصية نبيل بعد عدة سنوات عندما قرأت رواية دوستويوفسكي الشهيرة The Idiot، فقد كان نبيل مثل ميشكين، بطل الرواية، "ابلهاً" من منظور الذين لا يعرفون من الحياة الا الركض وراء النجاح والربح. بقي نبيل في الجامعة بعد ان تخرجنا، ولست ادري ان حاز الشهادة الجامعية. دخل مع اخيه في مشروع تجاري ادى خلال بضع سنوات الى افلاس العائلة، وعاد الى بيروت وبقي دون عمل الى ان حصل على تأشيرة دخول الى الولايات المتحدة. التقيت به في واشنطن في اواخر الستينات وكان على عادته لا يحمل هماً، مبتسماً لا يكترث بما سيجلبه الغد. كان مدمناً على احتساء الخمرة، الامر الذي افسد كليتيه.

ومن حسن حظ نبيل ان اسامه قدري، صديقنا المشترك من ايام الجامعة، كان يعمل في السفارة العراقية في واشنطن آنذاك، فوجد له عملاً في مكتب الملحق التجاري في السفارة نفسها. وخلال السنوات اللاحقة درج على الاتصال بي تلفونياً بين الفينة والاخرى فنتناول الغداء سوية، ويحدثني عن احواله وعن آخر اخباره. في السنوات الاخيرة حنّ الى العودة الى سوريا والى مسقطه اللاذقية بالذات، وذلك بعدما اصابه السرطان في مثانته أجريت له عدة عمليات جراحية لكن دون نتيجة. ثم اصيبت كليتيه فتوقفت عن العمل، ما اضطره الى تطهير الدم بواسطة دياليسيز ثلاث مرات في الاسبوع. كان يذهب الى الكلينيك القريب من بيته وينتظر ساعات مع المرضى الفقراء الى ان يحين دوره. وكان تطهير الدم يستغرق ساعتين، يتبعه شعور بالدوار والغثيان يستمرّ طوال الليل. خلال هذه الفترة لم اسمعه مرة يتذّمر من الآلام التي كان يعانيها. ولما عرضت عليه بعض العون المالي رفض بحجة ان تأمينه الصحي يكفي لتسديد تكاليف علاجه.

اتصل بي ذات يوم واخبرني انه نقل في الليلة الماضية الى مستشفى جورج واشنطن وان عملية اخرى ستجرى له في مثانته. زرته بعد العملية الجراحية. فتح عينيه لدى دخولي الغرفة وابتسم فرحاً عندما رآني. سألني بصوت خافت كدت لا اسمعه عن الاخبار وعما يجري. تحدثنا قليلاً ثم تركته على ان ازوره في اليوم التالي. في الايام التالية تحسنت صحته وصار ينهض من الفراش ويتمشى في ممرات المستشفى. طلب اليّ ان اتوسط لدى طبيبه (صديقي الدكتور سعيد الكرمي) ليستبدل احدى كليتيه المعطلتين بِكلْية سليمة. بحثت الموضوع مع سعيد فأخبرني ان وضع نبيل الصحي تدهور الى درجة اصبح فيه اجراء اية عملية جراحية له امراً مستحيلاً، وقال انه لا

يتوقع له ان يعيش اكثر من شهرين او ثلاثة.

زرت نبيل قبل وفاته بايام قليلة. وجدته فرحاً يتمشى في غرفته. سألته عن سبب فرحه. قال: "لا تؤاخذني اذا قلت لك السبب الحقيقي. لقد "خريت" هذا الصباح."

كان لا يستطيع ان يتغوّط الا نادراً بسبب عطل كليتيه، فاصبح اليوم الذي يتمكن فيه من "الخروج" مليئاً بالفرح.

رنّ التلفون في الصباح الباكر وسمعت صوتاً لا اعهده، وعرفت بالحال ان نبيل قد توفي. أقيم قداس لراحة نفسه في اليوم ذاته في كنيسة مار بطرس الكاثوليكية في واشنطن. حتى ذلك الوقت لم أكن ادري ان نبيل اعتنق الدين الكاثوليكي اثناء وجوده في المستشفى. كان عدد الذين حضروا القدّاس سبعة اشخاص لا اعرف منهم احداً. كان بينهم قريب لنبيل هاجر منذ امد طويل واقام في ولاية فرجينيا، وهو الذي اتصل بي ذلك الصباح. جلسنا في زاوية من قاعة الكنيسة الواسعة التي تتسع لعدة مئات، واستمعنا الى القسّ الاميركي يؤبّن نبيل. لم يذكر اسمه مرة واحدة. تحدث عن "اخونا الغائب" بكلام عام ينطبق على اي كاثوليكي توفي في احضان الكنيسة. كان يقرأ نصاً وضع خصيصاً لهذه المناسبات، ولم يكن لديه أية فكرة عمّن هو نبيل. بعد القدّاس وري نبيل في التراب وحيداً في ضريح لا اعرف أين يقع.

## ٤

وصلنا بسكنتنا قبل المغيب. سألنا سائق السيارة اين نريد النزول. قال له فؤاد: "في الساحة" كانت الساحة مُقفرة تماماً.

سرنا صعوداً في الطريق الرملية نحو بيت ميخائيل نعيمة الذي ما زلت اذكر موقعه. كان بيتاً كبيراً مبنيّاً من الحجر الابيض ومسقوفاً بالقرميد الاحمر على نمط معظم بيوت بسكنتا آنذاك، ويقع في مكان مرتفع من البلدة يطل على وادي الجماجم من جهة وعلى جبل صنين من جهة اخرى.

فتحت لنا الباب ابنة اخيه ميّ. كانت رغم صغر سنها ربّة بيته والمشرفة على كل ما يتعلّق بحياته اليومية (بعد سنوات تزوجت من احد شباب بسكنتا، لكن زواجها لم يطل وعادت الى رعاية عمّها وبقيت الى جانبه حتى وفاته سنة ١٩٨٧).

قدمت لنا القهوة في غرفة الجلوس. وما هي الا بضع دقائق حتى دخل علينا ميخائيل نعيمة. لم يتغير منذ لقائي الأوّل بـه في ١٩٤٢. بدا في الاربعينات من العمر، وكان يقترب من الستين. نحيف البنية، سريع الحركة، عيناه مليئتان بالضوء. ينظر اليك نظرة هـادئة تجعلك تـأمن اليه مبـاشرة. عرّفتـه على فؤاد، وسـألني عن اوضـاعي، واخبرتـه عن القطعـة التي كتبتها خصيصـاً لـه. فقـال بسرور: "غداً نقرأها سوية".

في بسكنتا تشرق الشمس متأخرة من وراء صنين. استيقظنا متأخرين وتناولنا الفطور الذي جلبته لنا ميّ في صينية حافلة باللبنة والجبنة ومربى السفرجل والصعتر والزيت مع الخبز المرقوق.

قرأت لميخائيـل نعيمة "نـظرتي الى الحياة" بكـاملها (حـوالي عشرين صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة). جلس صامتاً دون حراك طيلة قراءتي لساعة. سُرَّ بما كتبته حول الفلسفة الشرقية التي تقول بـوحدة الـذات والعالم والتي استمـديتها من قـراءات سريعة ودون التعمّق بها. لكنه لم يعلّق على المقاطع التي بدأت تسري في تفكيري وبخاصة تلك التي تناولت فيها باختصار معتقـداتي السياسيـة التي

اخذت بالتحول منذ دخولي الجامعة.

كان ميخائيل نعيمة في تلك المرحلة من حياته قد اعتنق النظرة البوذية بشكل كلّي واتخذها عقيدة يبشر بها في كتاباته وخطبه. عند عودته من المهجر سنة ١٩٣٢ بدا واضحاً من الخطب التي القاها في مناسبات مختلفة في لبنان وسوريا وفلسطين (ونشرت في "زاد المعاد") ان الشاعر المبدع صاحب قصيدة "اخي" (١٩١٧) والناقد الادبي صاحب "الغربال" (١٩٣٣) قد تحوّل الى مفكّر متصوّف لا يدعو الى التغيير الاجتماعي والتجديد الفكري بل الى "التغلّب على الجسد" والى "خلاص الروح".

امس اعدت قراءة "زاد المعاد" لنعيمة، وتوقفت عند خطابين القى احدهما في الجامعة الاميركية في ٢١ شباط ١٩٣٣ بدعوة من جمعية اتحاد الطلبة، والثانية في حفلة التخرج في مدرسة الفرندز للصبيان في رام الله بتاريخ ٥ تموز ١٩٣٥ السنة، التي التحقت بها بمدرسة الفرندز للبنات. لم اقرأ ميخائيل نعيمة منذ تخرجي في حزيران ١٩٤٧. نسيت اناقة اسلوبه وقوة تعبيره في الكتابة. تأتي جمله كاملة منسجمة راسمة صُوَراً في اطار شعري خلّاب. لكن ما الذي كان يتوقع ميخائيل نعيمة ان يتفهمه شباب في مطلع حياتهم الجامعية من خطاب افتتحه بهذه الكلمات:

"كأني بكم، عندما كلفتموني الخطابة، حسبتم ان عندي لكم عطية. لا. ليس في مستطاعي، ولا في مستطاع اي انسان، ان يعطيكم شيئاً لان لكم الكون وكل ما فيه. فكما ان في بذرة الارض الصغيرة تنطوي اسرار الارزة الكبيرة التي ولدتها، هكذا انطوت فيكم كل امجاد القدرة التي بعثتكم من الوجود الى اللاوجود. فانتم سرمديون كالقدرة التي من رحمها انبعثتم. وفيكم كل اسرارها. اذن حذار من الذين ينادونكم من اعالي السطوح: "ها نحن مثقلون

بالهدايا، تعالوا وأخذوا منا!" حذار من هؤلاء لانهم انبياء كذبة. وليس لديهم من عطايا سوى اوهامهم."

وماذا كان يتوقع ان يكون اثر خطابه في طلاب ومعلمي الفرندز وضيوفهم من اعيان رام الله والبيرة؟

"سلوا خيطاً في ثوب من الاثواب التي على اجسادكم... ما هو ومن اين هو؟ تتبعوه بالخيال، اذا امكنكم، في كل ادوار حياته حتى الدقيقة الحاضرة. أوَ لا ترون ان كل عناصر الارض والسماء قد تكاتفت مع كل قوى الانسان الجسدية والروحية لتجعله خيطاً في ثوبكم؟ نعم... سلوا ثيابكم ما هي ومن اين هي؟ تجدون انكم تلبسون الناس وحياة الناس، والكون وحياة الكون، في كل ما تلبسون..."

هناك شبه كبير بين روحانية ميخائيل نعيمة وميتافيزيقية شارل مالك، بالرغم من اختلافهما في المنهج والتعبير. كان لدور الخيال في فكر ميخائيل نعيمة الدور نفسه الذي نهض عليه الايمان في فلسفة شارل مالك، فجمعت بينهما نظرة غيبية واحدة للانسان والكون. لكن في حين وظّف شارل مالك نظرته المثالية لخدمة اغراض شخصية وسياسية، حافظ ميخائيل نعيمة على موقفه المتنسّك وقضى حياته في السعي الى خلاصه الشخصي في عقيدته الصوفية.

## ٥

في الفترة التي قمنا فيها بزيارته، كان ميخائيل نعيمة يعمل على كتابة ما اعتبره اهم مؤلفاته وهو "كتاب مرداد" الذي وضعه بالانكليزية بعنوان "The Book of Mirdad" ثم ترجمه بنفسه الى

العربية. وهذا الكتاب هو على نمط كتاب "النبي" الذي وضعه جبران خليل جبران باللغة الانكليزية ايضاً واصبح احد اوسع الكتب انتشاراً في العالم. وقد اراد ميخائيل نعيمة كتابه ان يكون خلاصة فلسفته في الانسان والوجود.

وضع نعيمة الكتاب على شكل قصّة المعلم الهادي مرداد، وتلامذته السبعة المقيمون معه في كهف منعزل في رأس جبل عال حيث يتحدث مرداد اليهم في مواضيع مختلفة كالتي تحدث فيها المصطفى في "النبي" والتي عالجها نيتشه في "هكذا تكلم زردشت". ومن هذه المواضيع: "في الكلمة المبدعة"، "في الثالوث الاقدس والتوازن الكامل"، "في البواثق والغرابيل"، "في الخادم والمخدوم"، "في الدينونة ويوم الدين"، "في المنطق والايمان"، "في الارادة الكلية المقدسة".

والكتاب في سبعة وثلاثين فصلاً، يبدأ بالتعريف بمرداد وكتابه (كما دوّنه احد اتباعه)، وينتهي بخطاب يوجهه مرداد (ميخائيل نعيمة) الى البشرية جمعاء ويقول فيه:

"اقول لكم ثانية: انتم الطوفان، وانتم السفينة، انتم الربّان. واما السفينة فجسدكم، واما الربّان فايمانكم. وهذه كلها تتخللها ارادتكم. ومن فوق هذه كلها يهيمن فهمكم. فاهتموا لسفينتكم كيما تكون متينة وصالحة لمصادمة الامواج.. ثم اهتموا لربّانكم كيما يكون رزيناً وغني الخبرة باسرار الملاحة.. ولكن الاهم من ذلك وهذا ان تبحثوا عن ينابيع الطوفان وان تدربوا ارادتكم على تجفيفها واحداً بعد واحد. وإذ ذاك تهدأ ثورة الطوفان ورويداً رويداً تتلاشى." (٣٢٠ - ٣٢١).

والمشهد الاخير في الكتاب يعكس المشهد ذاته في كتاب "النبي"، حيث يودع المعلم (جبران، نعيمة) اتباعه:

”عندما وقف المعلم عن الكلام سرت في السامعين حركة اشبه ما تكون بحفيف الاوراق. فكأنهم تنفسوا وكانوا قد خنقوا انفاسهم وهم يصغون الى المعلم“.

”وقبل ان ينحدر المعلم عن درجات المذبح دعا السبعة اليه وطلب ان يأتوه بالقيثار. واذ جاؤوا به اخذ يرنم معهم نشيد الفلك الجديدة. وسرعان ما التقط الجمهور اللحن، ومن الوف الافواه تعالى القرار امواجاً جارفة الى السماء: ربانك الله، سيري، فلك مرداد“. (ص ٣٢٨).

٦

لم اقرأ ”مرداد“ الا بعد مضي عدة سنوات على صدوره. لم يُنشر في اميركا كما توقع ميخائيل نعيمة فاضطر الى نشره بالانكليزية والعربية في بيروت. وعندما قرأته تذكرت حديثنا قبل عودتنا من بسكنتا الى بيروت في اليوم التالي. كنا نتمشى عند الغروب في الطريق المؤدي الى صنين. سألنا ميخائيل نعيمة عن خططنا للمستقبل بعد التخرج من الجامعة. قال له فؤاد انه ينوي العمل في السعودية. وقلت اني لا ادري بعد ما الذي سأفعله. ثم اردف نعيمة بصوت عادي، كأنه يتكلم عرضاً، بأنه يفكر بانشاء ”معتزل“ يشارك فيه عدد محدود من الاشخاص تفتحت قلوبهم على الحقيقة وقرروا السير في طريق الخلاص. وسأل عن رأينا في الموضوع. لا اذكر الجواب الذي تقدم به كل منا، سوى قول فؤاد انها فكرة جميلة لكن غير عملية، كما اذكر نظرة نعيمة اليه. بقي صامتاً لفترة ثم انتقلنا الى موضوع آخر.

ادركت ما كان يرمي نعيمة اليه وانا اقرأ "مرداد". كان يعرض علينا "ترك العالم" والانضمام الى "معتزل" يقيمه في اعالي صنين كما فعل مرداد و"رفاق الفلك" في معتزلهم الكهفي في "جبل عال". هل كان ميخائيل نعيمة يحلم بأن يكون هو مرداد "نبياً هادياً للبشر"؟

لم ينشيء ميخائيل نعيمة "المعتزل" الذي كان يحلم به. مع تقدمه في السن انتقل الى بيروت اتقاء من برد بسكنتا القارص. عندما يدفأ الطقس كان يصعد الى بسكنتا، فيقضي فيها معظم فصل الصيف. لم التقِ به بعد تلك الزيارة (١٩٤٥) الا مرتين وبشكل عابر. كانت الاولى في نادي خرّيجي الجامعة الاميركية لدى عودتي الى لبنان في مطلع الخمسينات وكنت اتناول الفطور في قاعة الطعام واذا برجل يقف امام مائدتي محيياً. في باديء الامر لم اتعرف عليه. قال بصوته العميق: "كيف حال الدكتور هشام؟"

نهضت مسلّماً بحرارة ودعوته الى الجلوس وتحدثنا قليلاً الى ان جاء التاكسي الذي كان قد طلبه.

اما المرة الثانية فكانت في بسكنتا في صيف ١٩٧٠. كان يوم احد وكنت برفقة يوسف الخال وادونيس وتوفيق صايغ وفؤاد رفقة وكنا في طريقنا الى مقهى نبع صنين. اقترح يوسف ان نتوقف لزيارة ميخائيل نعيمة، وكان من عادته في ذلك الحين ان ينتقل في فصل الصيف الى "الشخروب"، ليقيم في دارة صغيرة مبنية على النمط القروي القديم وتقع الى جانب الطريق المؤدي الى صنين. وجدناه جالساً لوحده في ظل عريشة تغطي ساحة الدار التي تطل مباشرة على وادي الجماجم، يحتسي فنجاناً من القهوة ويدخن سيجارة اميركية الصنع. كان قد تجاوز الثمانين وما زال على صحته وقوته. رحب

بنا، وسلم عليّ بحرارة. تناولنا القهوة معه، ثم أكملنا طريقنا الى المقهى.

توفي ميخائيل نعيمة في انطلياس، احدى ضواحي بيروت الشرقية، حيث اقام عند اندلاع الحرب الاهلية. كان في التاسعة والتسعين من عمره وما زال يتمتع بكامل وعيه. اخبرني ابن اخيه نديم نعيمة وكان معه ساعة وفاته، انه كان سعيداً يملأه الامل والايمان حتى آخر لحظة من حياته، وانه قبل وفاته بساعة دخن سيجارة "كِنت" مع فنجان قهوة.



بين بساتين بسكنتا. خيال فؤاد وهو يلتقط الصورة.



التقط هذا المنظر لبسكنتا من شرفة ميخائيل نعيمة..



فؤاد وانا مع ميخائيل نعيمة في بسكنتا سنة ١٩٤٥.

# ٨



١

كانت عودة انطون سعادة من الارجنتين في مارس ١٩٤٧ حدثاً فاصلاً في حياتي الجامعية. قبل وصوله ببضعة اشهر كنت قد انتهيت من كتابة بحث حول الحزب السوري القومي الاجتماعي قدّمته في مادة العلوم السياسية التي كان يحاضر فيها شارل عيساوي، وقررت على اثره الانضمام الى الحزب. كنت في تلك المرحلة أبحث عن عقيدة الِفُّ حياتي حولها، عن ذات تتجاوز "الانا" الفردية، وعن هوية اجتماعية تضفي على حياتي وجوداً حقيقياً محسوساً. فوجدتها في عقيدة الحزب السوري القومي الاجتماعي.

ترددتُ في مغادرة البلاد لتكملة دراساتي العليا في الولايات المتحدة عقب رجوع سعادة من منفاه القسري، وبسببه ايضا قطعت دراستي للدكتوراه في شيكاغو في بداية ١٩٤٩، وعدت الى بيروت للعمل في الحزب.

كتب اليّ بعد ذهابي الى اميركا ملمحاً الى رغبته في ان اعود

الى لبنان: "لست ادري طول المدة المزمع ان تقضيها في بلاد الفخفخة السياسية والميعان الفردي. آمل ان لا تطول كثيراً، وان اراك قريبا في الوطن وتجالد معنا" (رسالة من بيروت في ١٩٤٨/٦/٢٢). وفي رسالة اخرى تسلمتها منه في نهاية صيف ١٩٤٨، شجعني على وضع الدراسة جانباً او تأجيلها، مما وضع حدا لترددي في العودة: "مع اني كنت اود ان تكمّل درس الدكترة من اجل قيمة المركز العلمي والرتبة بالنظر لمفهوم البيئة ونظر المؤسسات التهذيبية، فاني افضل اكتفاءك من التخصص في العموميات بما وصلت اليه لتنصرف الى التخصص في فلسفتنا وقيمنا والعمل في ثقافتنا. فمجتمعنا القومي الاجتماعي في اشد الحاجة الى المتخصصين في عقيدته الذين ينصرفون الى توطيد اسس النهضة وتقوية ثقته بنفسه ومصيره. وان وجودك بقربي سيعينني على تصريف امور كثيرة تزدحم وتتراكم حولي، وليسوا كثر الذين استطيع تكليفهم النظر في بعضها" (رسالة من بيروت في ١٩٤٨/٨/٢٥).

منذ لقائنا الاول (بعد وصوله ببضعة ايام) غمرني انطون سعادة بعطف واهتمام كبيرين، ربما لاني كنت ادرس الفلسفة (وكان يهوى الفلسفة والتاريخ بخاصة)، ربما لانني كنت فلسطينيا ومن عائلة مسلمة، او لأنه توسّم فيّ موهبة خاصة تفيد الحزب. اذكر جلستنا الاولى معه انا وفؤاد نجار في عين عنوب في ٤ نيسان ١٩٤٧، وصدف يوم عيد ميلادي العشرين، حين تمشينا في الطريق العام المطل على بيروت، وحرسه الخاص يسير خلفنا. جلسنا تحت شجرة توت الى جانب الطريق، ثم عدنا الى البيت الذي كان يقيم فيه وشربنا الشاي عند غروب الشمس. كان صوته منخفضاً ولفظه واضح النبرات، واسلوبه في الكلام يلفت النظر بخلوّه من الكليشيهات والتعابير المألوفة. يتكلم اللغة الفصحى بطلاقة (ابتناه

صفية واليسار كانتا لا تحسنان الا الفصحى عند وصولهما الى بيروت في ربيع ١٩٤٧) ويستعملها مع اللغة العامية للتأثير في سامعيه (كما فعل جمال عبد الناصر على نطاق واسع فيما بعد). ورغم ان عربيته الفصحى كانت أصيلة بتعابيرها، الا انها لم تكن "عربية" بالمعنى المألوف. كانت "لغة" جديدة، فذة، لا في مضمونها وحسب بل ايضاً في مفرداتها وفي اسلوب تركيبها. كانت لغة عربية حديثة.

حدثنا في تلك الجلسة عن افكار وموضوعات تراوحت بين الآني والتاريخي، بين القومي والحضاري، بين العادي واللغوي. متنقلا بسهولة من تاريخ بابل وآشور الى الوضع الراهن في العراق وسورية، من الحرب العالمية التي انتهت الى الصراع العقائدي بين الكتلة الغربية والكتلة الشرقية، الى الدين والفلسفة والادب والسياسة. (في السنتين اللاحقتين عالج عددا من هذه الافكار والموضوعات في خطب ومقالات نشرت في "كل شيء" و"الشمس" و"النهضة" و"النظام الجديد"، وهي جزء لا يتجزأ من اعماله الكاملة التي جمعها وحققها بدر الحاج).

كان التأثير الذي تركه سعادة في نفسي طاغيا الى درجة اني لم اعد ارى لنفسي مستقبلا خارج الحزب ولا عملا الا داخله. زال التردد الذي احدثه في نفسي انتقالي من منطق القومية العربية الى مفهوم القومية السورية، وتقبلت الحل الجدلي الذي طرحه انطون سعادة على الشكل التالي: "القوميات" القطرية المتعددة (اللبنانية، العراقية، الفلسطينية الخ) نقيضها القومية العربية الواحدة (من الخليج الى المحيط). الحل الجدلي اذن هو القوميات المحددة، اي قومية الاقطار المركزية الاربع في العالم العربي: الهلال الخصيب، "العربة"، وادي النيل، المغرب. اشبع هذا الطرح رغبتي في التحديد الواضح. وزال التناقض الذي كان يشدد عليه المنظرون

القوميون العرب في حلقاتنا الفكرية بين ما هو قومي عربي وبين كل موقف آخر، واتضحت في ذهني مفاهيم القومية والامة والوطن ودور التاريخ في تكوين البُنى الاجتماعية والسياسية وتطوّرها عبر الزمان والمكان.

لم يراودني شعور بالذنب بأني تخليت عن "هويتي" العربية. فسورية امة عربية تجمعها بمصر والجزيرة العربية والمغرب لغة واحدة وحضارة واحدة وتاريخ واحد ومصير واحد. صرت ادرك ان نظرية القومية العربية، بشموليتها الفكرية واصرارها على الوحدة الكلية، انما قامت على العاطفة اكثر منها على العقل والمنطق والواقع الموضوعي، فاتخذت الطابع ذاته للايديولوجية الدينية التي كان يُحرّم نقدها ويمنع طرح اي تساؤل حولها.

## ٢

لم يكن في الحزب الى حين عودة سعادة من هو مؤهلاً لمعالجة الامور النظرية والايديولوجية الا فايز صايغ. كان يحضر للماجستير في الفلسفة، ويقوم، قبل عودة انطون سعادة، بمهمة عميد الاذاعة والثقافة في الحزب. تعرفت على فايز صايغ عند دخولي قسم الفلسفة، وكان يدرّس حصة في الفصل اثناء العام الدراسي. درست معه مادتي "فلسفة ارسطو" و"الفلسفة الوجودية،" وكان يعتبر نفسه "وجودياً" Existentialist. شجعنا على قراءة كيركجارد، وبيردياييف، دون ان يذكر هايدجر او سارتر (لا اظن انه اطلع على كتاباتهما)، ودفعنا باتجاه النزعة الوجودية (المؤمنة) التي كان شارل مالك يدعو اليها. وتوطّدت الصداقة بيننا بعد انضمامي الى الحزب.

صرت ارافقه الى الاجتماعات الحزبية واستمع الى خطبه التي يلقيها ارتجالا فيلهب مشاعر مستمعيه ببلاغته وسلاسة لغته. وكانت اهتماماته فلسفية اكثر منها سياسية، ومعالجاتها القضايا السياسية والاجتماعية من منطلق يعارض ضمناً منطلق العقيدة القومية. وعندما عاد انطون سعادة الى لبنان واطلع على المقالات التي نشرها فايز في النشرة الثقافية للحزب وجه اليه نقداً عنيفاً لموقفه الوجودي "الفردي". وتوقع فايز ان اقف الى جانبه وان ادافع عنه، غير اني لم افعل ذلك، الامر الذي لم يغفره لي حتى وفاته سنة ١٩٨٠.

ما زلت اقرأ كيركجارد مرة في السنة على الاقل عندما اتناوله في مادة "تاريخ الفكر الاوروبي في القرن التاسع عشر" التي ادرّسها في كل فصل خريف. عندما اقرأ كيركجارد استعيد تلك الايام والاحاديث الطويلة التي كنا نتداولها حول كيركجارد والفلسفة الوجودية في مشاويرنا على الكورنيش وفي جلساتنا في مقاهي الروشة، واشعر بالحرارة التي كانت تسري في جسدي والحماس الذي يطغي عليّ في تلك الساعات. افتقد فايز وكيركجارد على السواء، كأنهما صديقان عزيزان اختطفتهما مني يد المنون.

بعد سفرنا الى الولايات المتحدة سوية في اواخر سنة ١٩٤٧ لتكملة دراستنا العليا، فايز في جامعة جورجتاون وانا في جامعة شيكاغو، بقينا على صداقتنا. الا ان هذه الصداقة تحولت، بالنسبة لفايز، من صداقة حميمة الى علاقة غابت عنها الثقة. من ناحيتي حاولت الحفاظ على شعوري نحوه، رغم طرده من الحزب. لكن الصلة انقطعت بيننا بعد ذهابي الى شيكاغو ولم اتصل به ثانية حتى مطلع يوليو ١٩٤٩ عند عودتي الى الولايات المتحدة بعد اعدام انطون سعادة. كنت في حالة تقارب الانهيار النفسي، واصرّ عليّ ان احضر الى واشنطن حالاً. فأخذت القطار من شيكاغو ووصلت الى

واشنطن بعد ثلاثين ساعة من السفر، ووجدته ينتظرني في المحطة. اقمت معه شهراً، الى ان استرجعت قوتي واتزاني الداخلي، وعدت الى شيكاغو في بداية الفصل الدراسي صحيحاً معافى بفضل عطفه وتسامحه.

## ٣

اول ما فعله انطون سعادة بعد عودته الى لبنان هو اعادة تنظيم الحزب، بدءا بمحاسبة القوميين الذين خرجوا على مبادىء الحزب وعقيدته، مثل فايز صايغ ويوسف الخال، والذين خرجوا عليه سياسياً بالتركيز على "الكيان اللبناني" والتخلي عن مفهوم "سورية" و"الهلال الخصيب"، مثل نعمة تابت وغسان تويني. وفي الوقت ذاته حرص على استرجاع الوجوه القديمة التي ابعدت عن الحزب اثناء غيابه، مثل الضابط عساف كرم الذي قاد الثورة القومية الاجتماعية الاولى في تموز ١٩٤٩، ومحمد يوسف حمود الاديب والشاعر اللبناني، كما حرص على ترقية الكوادر في الحزب، مثلي ومثل لبيب زوّيا وفؤاد نجار وجورج عطيه.

منذ اليوم الاول لوصوله اثار انطون سعادة مخاوف الحكومة اللبنانية، وعلى رأسها رياض الصلح في اول عهد بشارة الخوري، والتي ما لبثت ان اصدرت مذكرة توقيف بحقه. كان السبب المباشر لذلك، الخطاب الذي القاه سعادة في منزل نعمة تابت في الغبيري، والذي اعلن فيه عن رفضه الضمني للكيان اللبناني واصراره على وحدة الوطن السوري.

وبعد بضعة اشهر على وصوله اصدر سعادة، وكان ما زال

ملاحقاً، نصاً جديداً لـ "مباديء الحزب القومي الاجتماعي وغايته،" وَرَدَ فيه تحديدٌ جديد للوطن السوري شمل بالاضافة الى سورية الطبيعية العراق وجزيرة قبرص، والتعبير الجديد، "الهلال السوري الخصيب ونجمته جزيرة قبرص." وفي تلك الفترة بقي سعادة في الجبل واقام مركزاً متنقلا للحزب وأنشأ حرساً مسلّحاً لحمايته، واعاد استعمال الشعارات "السورية" التي كان نعمة تابت قد استبدلها بشعارات "لبنانية" وامر باعادة اصدار مجلة الحزب الرسمية وعليها شعار الزوبعة.

ومع ان سعادة وافق على اشتراك الحزب في الانتخابات اللبنانية التي أجريت في اواخر ١٩٤٧، الا انه ادرك تمام الادراك ان النظام اللبناني سيمنع العمل السياسي عن الحزب طالما بقي على تحدّيه للحكومة اللبنانية القائمة. ولم تمضِ بضعة اسابيع حتى تكتّلت كل القوى السياسية من اقصى اليمين الى اقصى اليسار، من مسيحية واسلامية، حزبية عروبية ولبنانية وشيوعية، في وجه انطون سعاده والحزب القومي الاجتماعي، ودخلت في حلف ضمني ضدّهما.

## ٤

عندما رأيت سعادة عن قرب لأول مرة، كان يتطابق في شكله وملبسه وحركاته مع الصورة التي تكونت في مخيلتي عن الشخصية الاسبانية "اللاتينية". اذكر مرة في تلك الاسابيع الاولى لتعرّفي اليه انه كان يدخن سيجاراً في ضهور الشوير. قدم لي سيجارا من جيبه وقال: "هذا سيجار فخم". حتى ذلك الحين لم اكن قد رأيت سيجاراً في حياتي (تذكرت ذلك السيجار عند زيارتي الى كوبا في

ربيع سنة ١٩٧٧ عندما قُدِّم اليّ سيجار مثله في الحجم والنوع).
كان يصر كما يفعل الاسبان، على استعمال ضمير الجمع في مخاطبة ضيوفه، وبخاصة السيدات، ويحذو حذو الاسبان في تأدّبهم المفرط في المناسبات الاجتماعية. لذا كان لطيفا متواضعا الى ابعد حد في معاملة الكبار والصغار، وبشكل خاص في معاملة الذين قاموا بحراسته وخدمته. لكنه كان في الوقت ذاته بعيدا عن كل ما يحيط به. يبدو وحيدا حتى في وسط الحشود التي كانت تتجمّع لاستقباله أينما ذهب. عرفته معرفة حميمة، لكن لم اعرف داخليته كما كنت اعرف اصدقائي المقربين اليّ، وبقي بعيداً عني بعده عن الاخرين. كنت في بداية العشرينات من عمري وكان في منتصف الاربعينات من عمره. استعيد ذكراه الآن من وراء الفاصل الزمني الذي حوّله من الاب او الاخ الكبير الذي كان بالنسبة لي الى شخص غاب وهو في سن ابني او اخي الاصغر.

## ٥

عندما سمعته للمرة الاولى يتكلم العربية خيّل اليّ انه يتحدث بلكنة اجنبية، مثل اجنبي أتقن العربية واصبح يحسنها اكثر من اهلها. كانت عربيته محكمة، كل جملة يلفظها تحمل معنى واضحاً ووظيفة محددة (مما اضفى عليها صبغة نص اجنبي). ذكرني اسلوبه في الكتابة باسلوب النهضويين (الشدياق، الشميل، زيدان). ومثال على ذلك هذا المقطع، من بيان اول آذار لسنة ١٩٣٧، الذي يستعمل فيه التعابير والمركبات اللغوية التي كانت سارية في اواخر القرن الماضي: "يمر لبنان اليوم في عهد من عهود الطغيان لم يعرف

له مثيلا من قبل ولا سمعت به اذن بشر. وما طما سيل الطغيان الا على الخانعين فطارت نفوسهم شعاعاً، وما اهاب سوى اكبر الجبناء فانخلعت قلوبهم فزعاً". الا ان اسلوبه تحول في السنوات اللاحقة الى اسلوب دقيق انيق يصعب مقارنته باسلوب اي من معاصريه. ومع انه كان يحسن عددا من اللغات (الاسبانية والالمانية والفرنسية والانكليزية) تجنب استعمال الكلمات او التعابير الاجنبية في حديثه. واذا اراد استعمال تعبير لا مرادف له في العربية لم يتردد في ابتكار مفهوم جديد يستعمله دون تفسير او مقدمات ("نيورجعية"، "انترنسيونية"، "اميركانيا"، "الدفلماسية") ومصرا على مخاطبة ابنتيه صفية واليسار بالعربية الفصحى (كانت الكبرى آنذاك دون السادسة من العمر). كان يكره التمثل بالاجانب وعاداتهم، ويشدّد على استنباط البدائل لكل ما هو اجنبي في ممارساته الاجتماعية. فمثلاً، عند تقديم الشاي الى ضيوفه يمتنع عن تقديم الكاتو والحلويات الاوروبية(كما كان يفعل الناس "المودرن" في بيروت في ذلك الحين) ويستعيض عنه بالبقلاوة او الكنافة او نوع اخر من انواع الحلو الوطني ولا يقدّم من المأكولات في بيته الا المأكولات الوطنية (رغم امتناعه شخصياً عن معظمها لاسباب صحية).

مثّل لي انطون سعادة الرجل الحديث بالمعنى الكامل للكلمة. منذ ذلك الوقت برز امامي الفرق الفاصل بين الحداثة الابويّة المتخلّفة (التي كان من صفاتها اعتبار كل ما هو اوروبي "حديث" ومتفوق وكل ما هو وطني تقليدي ومتخلف) وبين الحداثة الذاتية المبدعة التي تقف ازاء الغرب موقف المساواة والتحدي، وتقف ازاء التراث موقف النقد والابداع.

## ٦

كانت حداثة انطون سعادة غير الحداثة الليفانتينية التي مثّلها لنا اساتذتنا في الجامعة الاميركية، وبخاصة شارل مالك، والتي كنا نقف ازاءها بخشوع واحترام، والتي دعا انطون سعاده الى محاربتها والتغلب عليها واستبدالها بحداثة قومية مستقلة. لم تكن الحداثة بالنسبة له تلك التي تستورد من الغرب بل تلك التي تنبع من داخل المجتمع وتراثه الحي. وكان اعتقاده جازماً بان المجتمع السوري قادر على الخلق والتجديد دون اللجوء الى النماذج الاجنبية، وان في النفس السورية "كل علم وفلسفة وفن". كانت الحضارة الغربية بالنسبة له واحدة من بين الحضارات العالمية، وليست، رغم هيمنتها المادية والعسكرية، الحضارة القدوة او المثال (كما كانت بالنسبة لشارل مالك).

كان في تربيته وثقافته ابن القرن التاسع عشر، عصر التنوير، وتأثّر تأثيراً عميقاً بالفلسفة الالمانية وبخاصة بالمدرسة التاريخية الالمانية ونظرتها الى نشوء الامم وتطور الحضارة الانسانية. مات قبل ان يشاهد نهاية فكر القرن التاسع عشر وبداية الفكر النقدي ونظريات التعددية والاختلاف التي تهيمن الآن. ترى لو عاش، ما كان موقفه ازاء القيم السائدة اليوم، "الحريات الديمقراطية"، "حقوق الانسان"، "التعددية السياسية"، "الذات الفردية"، "البيئة"، لا كقيم ونظريات فكرية وحسب، بل كأهداف عملية اصبحت تحكم انواع الصراع الاجتماعي والنشاطات السياسية والثقافية الجارية في العالم، بما فيه عالمنا العربي؟

اعدت اليوم قراءة مقاطع من "نشوء الامم"، كتابه الفذ الذي وضعه في سجن الرمل في بيروت وهو في الحادية والثلاثين. قدّمه

"الى رجال النهضة القومية الجبارة ونسائها العاملين لحياة سورية ومجدها." (اي قائد سياسي في ذلك الحين كان يتحدث عن "النساء العاملات" في حزب سياسي!) كان كتاباً لم تر اللغة العربية مثله في حينه، جديد في موضوعه واسلوبه وفي تناوله النظرة التاريخية الانتروبولوجية لتطور المجتمع لفهم نشوء الامم. استمد مراجعه من بحوث ومؤلفات في العلوم الانسانية والجغرافيا والاجتماع والتاريخ، في اللغات الالمانية والفرنسية والانكليزية، بالاضافة الى المراجع العربية الكلاسيكية وبخاصة ابن خلدون. في هذا الكتاب تمثلت روح الحداثة والتنوير في تفكير انطون سعادة بأجلى مظاهرها، وبخاصة في علمانيته وايمانه بالعقل والعلوم الحديثة وحتمية التقدم البشري.

لست ادري ما كان وقع هذا الكتاب في الاوساط الفكرية خارج الحزب، اذ لم اعثر على اية مراجعة نقدية له في الصحف والمجلات الصادرة في بيروت في تلك الفترة، ولا اعلم عن اية دراسة صدرت حوله. اما داخل الحزب فلا اظن انه لاقى تفهماً عميقاً، فلم يصدر حوله اي بحث مستقل، فبقي هذا العمل الرائد خارج الوعي الفكري السائد داخل الحزب وخارجه حتى يومنا هذا.

في محاضرته الاولى في الندوة الثقافية في ١٩٤٨ لخص سعادة معنى الحداثة بهذه المقولة: "النظر الاصلي ينبثق منا نحن بالنظر لحقيقتنا". اي برفض التبعية الفكرية (ما سماه: "الفكر المضطرب") والاصرار على اقامة الفكر الاصيل المستقل. وقال:

"الفكر المضطرب يبتديء بالتأثر بأحد المفكرين ثم ينتقل الى آخر ثم يحصر نفسه ضمن نطاق بعض الافكار ولا يعود يخرج، ويبدأ بمناقضة كل من له رأي آخر فتنشأ حالة الفسيفساء التي تتقارب قِطَعُها ولكنها لا تتحد."

"ان مثل هذا الفكر لا يمكنه ان يحقق شيئاً. الانسان الذي لا يزال على سذاجة الفطرة له شخصيته واستقلال نفسي وجوهر اعظم من شخص وضع نفسه اداة تسير بافكار حقيقته. ان الافكار المعتنقة اقتباساً من الخارج لا تحرك عوامل النفسيّة الصحيحة." "المحاضرات العشر في الندوة الثقافية". وهذا ما جسّده في حياته وفي موته.

من هنا تشديد انطون سعاده على اولوية العامل الذاتي في عملية التغير الاجتماعي، بدءا بفصل الدين عن الدولة والغاء الطائفية، الى تحديد الهوية القومية وتثبيت ثقافتها العلمانية واحياء تراثها القومي. ولهذا ايضاً اعتبر مجرد الاستقلال السياسي غير كاف لاطلاق قوى الامة وتحقيق اهدافها العليا، واعتبر تحطيم التبعية الحضارية للغرب (على العكس من شارل مالك) شرطاً اساسياً لقيام حضارة قومية جديدة.

## ٧

بعد تخرجي من الجامعة في حزيران ١٩٤٧، قررت قضاء الصيف في بيروت والعمل في الحزب، رغم معارضة اهلي ولأول مرة منذ طفولتي لم أقضِ جزءا من عطلة الصيف في عكا (لم يدر بخلدي آنذاك ان عكا كانت ستسقط في ايدي اليهود خلال اشهر قليلة واني لن اراها ثانية!)

كان انطون سعاده ما زال متوارياً عن الانظار، لكنه كان يتنقل بحرية تامة في الجبل يرافقه حرسه المسلح. اقيم المخيم القومي ذلك الصيف في ضهور الشوير واستأجر الحزب بيتاً لانطون سعادة

قريباً من العـرزال ليقيم فيه عنـد قدومـه الى بلدته وليستقبـل فيه الزائرين والرفقاء ولعقد اجتماعات مجلس العمد.

يقع المخيم على تلة تشرف على بيروت والبحر من جهة، وعلى الخنشارة وبسكنتا وصنين من جهة اخـرى. اشتركت انـا وفؤاد في خيمة صغيرة، واقام فايز صايغ في خيمة متاخمة. كان فايز ينهض باكراً ويشرع في الكتابة الى ان يحين موعد الفطور، فيضع اوراقه في حقيبة صغيرة ويقفل عليها، ثم يصعد في سيارة اجـرة ويتجه الى بيروت ولا يعود حتى الغروب. وبعد بضعة اسابيع ظهرت نتيجـة نشاطاته على شكل كتاب صغير بعنوان "من الاعماق" اتخذ فيه موقفاً واضحاً يتعاطف مع الفلسفة الوجودية رغم تعارضهـا مع العقيـدة القومية الاجتماعية كـما شرحها انـطون سعادة. تلك كـانت بدايـة خروج فايز على الحزب وعقيدته.

في تلك الفترة اعتاد انطون سعادة ان يستدعيني لرؤيته كلما حضر الى ضهور الشوير، فكنت اقضي معه النهار بطولة واحياناً ابقى في المساء لحضور الاجتماعات التي يعقدها مـع المسؤولين الحـزبيين وتستمر حتى ساعة متأخرة من الليل.

بعد الظهر كان يحب السير في الحرش القريب الذي اقام فيه عرزاله في اوائل الثلاثينات. كنا نخـرج من الباب الخلفي كي لا يرانا الحرس، ونتمشى قليلا ونجلس تحت شجـرة صنوبـر بجانب العرزال المطل على وادي الجماجم ومن وراءه بسكنتا وصنين. كنت استنح الفرصة في هذه المناسبات لاطـرح عليه اسئلة في مـواضيع مختلفة، منها ما كان فلسفياً ومنها ما تناول الشؤون السياسية الجارية. وكان يسره ذلك فيتكلم باسهاب وتفصيل حول المواضيع النـظرية التي كانت تتناول بخاصة التـاريخ والاجتـماع. واني لا آسف على

شيء بقدر اسفي على عدم تسجيل اقواله بعد تلك الجلسات. لكني ما زلت اذكر الكثير منها.

ارسل يطلبني ذات يوم، وكان قد عاد لتوه من رحلة سرية قام بها الى عمّان للاجتماع بالملك عبدالله. وجدته في حالة انقباض ويريد ان يفرِّج عن ضيق صدره. لم يخبرني تفاصيل ما جرى في عمّان، لكني ادركت ان نتائج الزيارة لم تكن كما كان يرغب ان تكون.

منذ عودته الى لبنان كان يحاول ايجاد مخرج من الحملة التي شنها ضده النظام اللبناني لاجباره على الرضوخ لارادة الطغمة الحاكمة وشروط اللعبة السياسية القائمة في لبنان آنذاك. وكان باستطاعته لو قبل بأداء الدور الذي اراده له النظام القائم (بصفته ارثوذكسياً يتزعم اوسع الاحزاب انتشارا في لبنان) ان يصل الى اعلى المناصب في الدولة، وان يصبح ثرياً. غير انه لم يكن في هذا الوارد. كان في عالم، والطغمة المهيمنة في عالم آخر. لا هو تفهم النظام الابوي الطائفي على حقيقته الشرسة، ولا الحكام والوجهاء الطائفيون ادركوا من هو هذا الرجل وما الذي كان يريده.

قال لي ونحن نسير في الطريق المنحدر نحو الدير: "لا مهرب من الثورة. لقد فرضوها علينا. اهم شيء التزود بالسلاح."

لكن من اين يأتي بالسلاح والحزب في ازمة مالية خانقة؟

"لست ادري. لكن ان لم نتدبر امرنا خلال مدة قصيرة يُقضى علينا. انهم يبيتون لنا شراً كبيراً."

كنا نسير الآن بالقرب من غابة الصنوبر والنبعان اللذان ذكرهما في مذكراته ("٣ مارس ١٩٢٩: اشعر بحنين الى بلادي، الى الوادي، الى غابة الصنوبر، الى النبع"). توقفنا عند النبع ذاته وشربنا من مائه ثم تابعنا طريقنا نحو الدير الى ان بدأت الظلال تطول والظلام يخيم. في طريق العودة، قبل ان نصل الى البيت،

رأينا عددا من الحرس يهرول نحونا. وصل خبر من بيروت ان فرقة من الجندرمة كانت في طريقها الى ضهور الشوير. قال رئيس الحرس: "السيارة جاهزة، حضرة الزعيم." لم تكن هذه هي المرة الاولى التي تأتي فيها قوات الدرك الى ضهور الشوير بحثاً عن انطون سعادة. كنا نعرف بمجيئها قبل ان تصل، ودائماً هناك متسع من الوقت لاخذ الاجراءات اللازمة للانتقال الى مكان قريب معد حسب خطة مسبقة.

قال وهو يصعد السيارة: "سنكمل حديثنا عند عودتي."

## ٨

لم يعرف انطون سعادة ملذات الحياة كما يعرفها الانسان العادي. كانت حياته مشدودة بخيط لا مرئي الى هدف واحد استحوذ كل وجوده واهتماماته. كل طموح ورغبة احس بها، كل امنية رمى الى تحقيقها، وكل علاقة اقامها، ارتبطت بهذا الهدف الواحد. حياته لم تكن ملكه. المال والعيش المريح والمركز المرموق لم يكن يعني له شيئاً. عاش فقيرا ومات فقيرا دون ان يدري ذلك. كان ثرياً لا يملك الا رؤياه.

وكان وُحيداً، لا صديق له بالمعنى المعروف، لا لأن الذين احاطوا به في الحزب كانوا دون مستواه الفكري والثقافي وحسب، بل لأنه عاش على صعيد مختلف من الحياة. كان هناك اشخاص، من بين الذين انضموا الى الحزب احبهم حباً جماً، كفخري معلوف. لكن علاقته بهم لم تكن علاقة "شخصية"، بل علاقة رفقاء كرسوا حياتهم مثله للصراع في سبيل قضية واحدة. يمكن القول ان ايمانه

بالامة والحزب ابتلع حياته فاصبحت حياته مجرد اداة وظفها لخدمة الامة والحزب.

عندما قال: "ان الدماء التي تجري في عروقنا، هي ملك الامة متى طلبتها وجدتها"، كان يعني ما قاله حرفياً. من هنا نتفهم رباطة الجأش الخارقة التي جابه فيها حكم الاعدام الذي اصدرته المحكمة العليا اللبنانية بحقه ونفذته في ٨ تموز ١٩٤٩.

لم يكن سعادة يملك حياة خاصة ليفقدها. فقد نسي نفسه، كما قال، لتحيا سورية.

## ٩

لا يمّحي يوم مغادرتي الى اميركا من ذاكرتي. وصلنا الى مطار اللد عند المغيب. كان يوماً شديد البرودة في منتصف كانون الاول ١٩٤٧. الطرق خالية الا من المصفحات البريطانية، وسيارة يوسف الـ "همبر" السيارة المدنية الوحيدة في الطريق بين القدس واللد. كان يوسف يوصلنا، اخاه فايز وانا، الى المطار لركوب الطائرة. امس، كنا في القدس، في اوتيل كلاريدج بالقطمون الذي يديره فريد عطايا. بعد الظهر ذهبنا جوزف سلامه وانا لمشاهدة فيلم "حبيب العمر" لفريد الاطرش وسامية جمال في سينما ركس. كانت القاعة تعجّ بالمشاهدين، والحياة تسير كعادتها كأن شيئاً لم يحدث في فلسطين.

في المطار الصغير المقفر يقول لنا الموظف في مكتب شركة الـ TWA بأن طائرتنا قد تأخرت وان موعد الاقلاع قد تأجل الى صباح اليوم التالي. نعود الى اللد ونمضي الليلة في فندق صغير بعد ان

يودعنا يوسف ويعود الى القدس. كانت تلك آخر ليلة امضيها في فلسطين.

في صباح اليوم التالي نستقل الطائرة. من نافذتها القي آخر نظرة على يافا. اراها من ناحية البحر، من فوق الميناء، واتبين العجمي، والكنيسة الارثوذكسية البيضاء الى جوار بيتنا. يخيل اليّ اني المح بيتنا في قمة تل العرقتنجي. وما هي الا لحظات حتي تغيب يافا عن ناظري، ولا اعود ارى الا الشاطيء الابيض الطويل.





صورته في العشرينات من عمره.

التقط هذه الصورة المصور نوفل في دمشق سنة ١٩٤٨.



الشاب أنطون سعادة في ضهور الشوير سنة ١٩٣٦ او ١٩٣٧.

في مهرجان بيت مري اكتوبر ١٩٤٧. الى يساره تجلس ابنته صفية وزوجته. ابنته الاخرى اليسار تحاول الهرب.





آخر احتفال لأول آذار (١٩٤٩) اقف الى جانب سعاده بعد القاء كلمتي. الى اليسار عبدالله سعادة وخلفنا ابراهيم يموت وفريد صباغ.

اتمشّى مع سعادة في مشوار على الكورنيش في ابريل ١٩٤٩. حارسه علي وراءنا.

مع قيادة الحزب الجديدة في دمشق في اوائل الخمسينات. من اليسار: سامي خوري، جورج عبد المسيح، عصام محايري، عبدالله محسن. جلوساً ادونيس وخالدة.



إلى الرفيق هشام شرابي
شيكاغو - اميركانية

الحزب السوري القومي الاجتماعي

مكتب الزعيم في ٢٢ يونيه ١٩٤٧

رفيقي العزيز هشام

لا داعي للإفاضة في أسباب تأخري في الكتابة إليك فإنك قد عذرت بنفسك، وأنت تعمل في المكتب، بعض هذه الأسباب التي ازدادت كثيراً بعد سفرك بازدياد المطرودين فأصبح وقت في تعرفني ومن مهما من مسائل اقتضت بعضها، وباستمراري في درس حالة الحزب الداخلية وحاجة القضايا المتنوعة ومتطلبات القضية القومية الاجتماعية الملحة، الضاغطة، بينما الأدمغة والأيدي العاملة قليلة. والنقص يورث مشاكل لا عداد لها.

آخر كتاب منك هو المؤرخ في العاشر من فبراير الماضي. وقد سلمت مدة الإدارة وإدارة الشؤون الرسمية في النظام الجديد. والرفيق فؤاد نجار لن يدخل الشكليات. وأعتقد أنه بالرغم من الفوضى التي لا تزال تسيطر في بعض أقسام الإدارة العامة، لا بد من أن تكون قد تسلمت بعض المطبوعات القومية الاجتماعية التي تحتاج إليها.

إن المشكلتين العظيمتين اللتين، في كتابك الأخير، جعلتهما مدار العمل في اميركانية: ١- الطلبة السوريين في الجامعات الاميركانية. ٢- الاتصال بالمواطنين الذين يجتمعون ويتكلمون ويتداولون في مسائل سورية، هما مشكلتان جوهريتان. ويظهر لي أن وجوب إيجاد الصداقة بين السوريين المغتربين ومنعهم من الشقاق والتحاسد والانقسام إلى الفرقة. وربما أن الرفيق فؤاد رجل قد تقرر العودة إلى النشاط الحزبي فأعتقد أنه يمكن الاتفاق معه وغيره على جدول أعمال ودعاوة منظمة. إن بين المغتربين المتعلمين أبناء الشعب والموجود منهم جماعة في سبيل مصيرها يرغبون في مساعدة الحركة مادياً إذا لم يمكن لهم الرغبة في الانضمام بأنفسهم إليها وللمساعدات المالية المنتظمة هي الأهم ما نفتقر إليه الآن.

الأستاذ منير سعاده، في سابق معرفتي الشخصية به، ويمكنه أن يكون مفيداً ومزوداً بالفائدة إذا اعتنق المبادئ القومية الاجتماعية بكاملها بلا تعديل ولا تحفظ. ولست أدري ما يعني "بالاعتبارات الشخصية البحت والمادية جداً" التي تمنعه كما تقول من أن

إلى الرفيق هشام شرابي
في ٢٥ يونيو ١٩٤٨ - ورقة ثانية

الحزب السوري القومي الاجتماعي

مكتب الزعيم

تربية من
يكون حاصلاً في الحزب. إن الدراسة التي أرسلتها عن كتاب الثائر، خصوصاً
موقف الحزب ونظريته ولكنها ليست منطبقة على كل الانطباق، في
في تأويل الحدث التاريخي وتقدير النتائج وقيمتها. وهو يحتاج إلى توجيه
وإصلاح ليصير نموذجاً من التعبير عن القضية الفلسطينية من وجهة النظر
السورية القومية الاجتماعية.

سأكرر على دوائر النشر وجوب إمدادك بالمنشورات الحزبية لتتصرف
بتوزيعها كما ترى مناسباً.

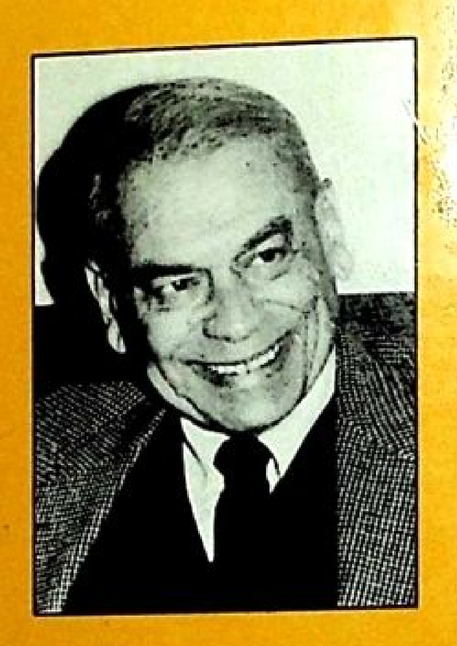
اطلعت على كتابك الأخير إلى الرفيق فؤاد نجار المؤرخ في ١٢ مايو الماضي
والمكتوب باللغة الإنكليزية وعرفت أنك ستشتغل بعد انتهاء إعدادك
في الفلسفة إلى لجنة الثقافة. أحب أن أقف على ما كانت ٢٠٨
دراساتك الفلسفية الأخيرة وعلى الخطط التي ترسمها لدرسك مع
لجنة الثقافة.

إنك تتألم من رؤيتك الجزء الجنوبي من وطننا يصير إلى الانسلاخ عنا
أمام عينيك جيل فيه وعيك المتقدم. إن مصيبة القوميين الاجتماعيين
العاملين الكبرى هي أنهم يسيرون بوعيهم وسط الفوضى والخراب المعنوي
في [illegible] الرجعية الدولية وأس البلاء. إن رؤيتي لمأساة فلسطين من زمان
آتية. وقد أعلنت وقوعها في رسالتي إلى القوميين الاجتماعيين والأمة السورية
في ٢ نوفمبر ١٩٤٧. وعندما كنت أسمع بالراديو نتيجة جلسة جمعية الأمم
المتحدة التي أقرت التقسيم كنت كأني أسمع حادثاً مضى. وروايته
تمثل المرة الثانية لا الأولى أمام نظري - مع ذلك فإنه يصعب كثيراً
تصور وقع الأمر في نفسي ساعتئذ. كل ما يجري الآن هو ماض يعاد
تمثيله أمامي. وإن أشد ألمي هو أن لا أكون في حالة تمكنني من إنقاذ
القضية التي كان ولا يزال ممكناً إنقاذها. ولكن الرجعية لا تتفق إلا
بقيام [illegible] تريد أن تعرف غير رأس البلاء، والشعب لا تزال أكثريته
تحت وطأة النفسية الرجعية. فليس أمامنا إلا أن نتألم ونستمر في عملنا
وإعداد الحركة السورية القومية الاجتماعية لمهمة تغيير المصير واتجاه التاريخ
نحو نجاح فكل خسارة تعوّض. إن القضية القومية الاجتماعية هي الأساس
وكل القضايا الأخرى هي فروع وأجزاء.

ليست لدي معلومات كافية عن [illegible] أن تشتغل في بلاد الخفة السياسية
والبيان [illegible]. آمل أن لا تطول غيبتك وأن أراك قريباً في الوطن
تعمل وتجاهد معنا. اقبل سلامي وتمنياتي لك التوفيق والنجاح، ولتحي سورية.

[signature]

نصّ رسالة أرسلها إليّ انطوان سعادة أثناء وجودي في جامعة شيكاغو.



◊◊ ولد الدكـ[illegible]ـشام شرابي في يافا، وامضى مراحل م[illegible]ـولته في بيت جده في عكا. دراسته الاولى في رام الله في مدرسة الفرندز. ثم الى الآي.سي. في بيروت. تخرج من الجامعة الاميركية في بيروت ١٩٤٧، وهو استاذ تاريخ الفكر الاوروبي الحديث في جامعة جورجتاون في واشنطن.

له مؤلفات عدّة بالانكليزية والعربية، منها: "المثقفون العرب والغرب،" "مقدمات لدراسة المجتمع العربي،" "النظام الابوي،" "النقد الحضاري للمجتمع العربي في القرن العشرين،" و"الجمر والرماد: ذكريات مثقف عربي،" الذي لاقى الصدى الكبير والاهتمام الواسع في انحاء العالم العربي.

"صور الماضي" هو سيرة ذاتية للعقدين الاولين من حياة الدكتور شرابي على ارض الوطن. وهذا الكتاب هو بين كتبه الأقرب الى جذوة "الجمر والرماد". ◊◊

دار نلسن